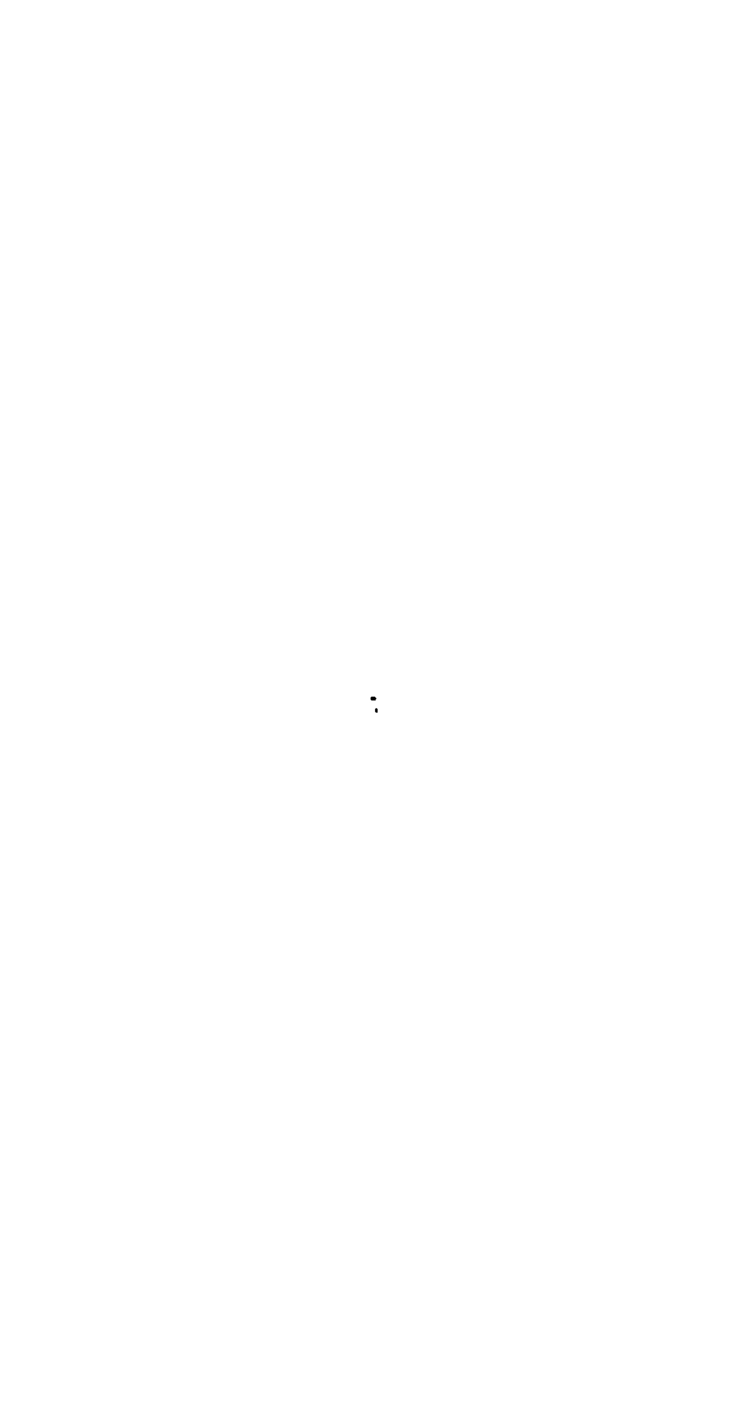
جبّور الدويهي

ريّا النهر

روايـة





جبور الدويهي

ريّا النهر

رواية

الطبعة الأولى، آب ١٩٩٨

ص ب ٢٢٦-١١، بيروت، لبنان
فاكس ٧٣٨١٥٩-١-٩٦١

ISBN 2-84289-078-7

إلى أخي سمير

صحيح ما يقولونه انه بعد الأب والأم كل الأهل جيران. ها هم أبناء عمه اللزَم يرفضون فتح بيوتهم، مع أنها أرسلت إليهم محمود ليطمئنهم أنها متكفلة الأكل والقهوة والخدمة على أتمّ وجه. صحيح أن المطاعم مصلحتها لكن المحافل مكلفة جداً. يعرف الجميع أنه أقام عندها طوال الاشهر الثلاثة الأخيرة ولم يكلّف اقرباؤه انفسهم عناء زيارته ولو مرة واحدة، وربما هو أيضاً لم يحاول الاجتماع بهم أو حتى رؤيتهم رغم كل سنوات الغياب، لكنها اعتقدت أن الموت يضع حداً لهذه الخلافات. وصل محمود اليهم فوجد سلوى تدخّن وتتصهصل، كانت عارفة بموته، ولما فاتحها بالموضوع كان جوابها حاضراً:

– ينام ثلاثين عاماً على صدور العاهرات وتصير في الآخر طلعته علينا؟

محمود لم يقصّر بها وذكّرها بأن البهدلة واقعة على أقاربه اولا. أخوها روميو كان واقفاً يسمع، وقد ابتسم راضياً عن كلامها خاصة عندما مصمصت شفتيها وأضافت:

- بلّغ الست ريّا أن بيوتنا ضيقة لا تسع ...

اذا كانت بيوت أبناء عمه ضيقة لا تسع، فما حال بيتها هي؟ لما كان الدوّار في عزّه، تغني فيه لور دكاش ويقصده الناس من بيروت وحمص وحتى من حلب، أيام الناعورة والتومبولا وحفلات الرقص التي يقيمها الموظفون الانكليز في شركة نفط العراق، عندما كانت الدنيا عليهم بألف خير وجاروا ... لان، بكت أمها على أبيها كي يقتني لهم بيتاً يليق بهم، بيتاً غير هاتين الغرفتين فوق المطعم. بيت أبو سليمان كان يومها معروضاً للبيع، قصدت أصحابه من دون أن تخبر زوجها وكاسرتهم في سعره وطلبت منهم إمهالها أسبوعاً كي تقنعه، لكنه لم يقبل ... وظلّت حتى آخر أيامها عندما تمر من هناك تحسد ساكني هذا البيت على شبابيكه الزرقاء ودرج الحجر الجميل وشجرة الخروب التي تزيّن مدخله، وفي كل مرة تتخيّل ريّا فيها بيتاً لها ولسامي ترى في مدخله درجاً من حجر الجرد الأبيض المقصّب وخرّوبة عبيّة ... والدها كان يفضل حفظ المال في جيبه، وأمها تقول إنه على شاكلة أهله الذين لا يهوون بناء البيوت ولا شراءها، وتتحدّى من يعرف لهم بيتاً في الساحل أو في الجرد. هذه عادة تجري في دمهم، كي يبقوا خفيفي الأحمال جاهزين دوما للرحيل. ثم تروح تروي أخبارهم وتترحّم على أهلها:

- لو لم نرث عنهم مطعم الدوّار، لكنا أمضينا العمر في بيوت الإيجار يطالبنا بها أصحابها في آخر كل سنة فنحمل فرشنا فوق ظهورنا وندور كالنوَر.

هذه حال ريّا وهم يعرفونها، فأين يريدونها أن تسكنه؟ أمام باب المطعم، على ضفة النهر في العراء، كي يضحك منهم الناس، أم تأخذه مباشرة الى الكنيسة نكاية بأقربائه الذين

تركوها وحدها معه؟ لم يحضر واحد منهم الى المستشفى حتى بعد ما قصدهم محمود، وصارت واقفة في جناح الطوارئ تنتظر ولا تدري ماذا تفعل. كلما انهارت الدنيا عليها تصلّب شيء فيها. الممرضة الخمسينية تمرّ بخطى سريعة وقصيرة، تفتح الباب المؤدي الى غرفة العمليات فيرتد وراءها ويحدث زيزقة مرتفعة تكاد لا تهدأ حتى تدفع الممرضة الباب بجسمها من جديد وهي تخرج حاملة بيديها طبق العقاقير، فيعاود الصرير.

- كرمى لله، زيّتوا هذا الباب يا أختي.

المرأة كانت جالسة على المقعد الخشبي الطويل وفي يدها قنينة ماء كبيرة تشرب منها بانتظام وتتنهّد. اجابتها الممرضة من دون أن تلتفت:

- غداً، يا عيني.

الطبيب المناوب هو الذي وجد لها الحل، بالصدفة. جاء ليسلّمها أيقونة صغيرة بيضاء من النوع الذي يوزّعه الكهنة على تلامذة المدارس فيعلّقونها في رقابهم ولا يتحسّرون على فقدانها لأنها لا تساوي الكثير، وتذكرة هوية وبعض المال اللبناني والدولارات الاميركية المبللة التي كانت في جيوبه. وأبلغها أنهم أنهوا تحضيره وأن الطبيب الشرعي قد كتب تقريره. جلس على المقعد الخشبي الى جانب المرأة التي تشرب وتمرر يدها على بطنها ثم وسّع لها مكاناً ودعاها الى الجلوس. تردّدت قليلاً فهي تفضل البقاء واقفة عندما تدخل المستشفى. انه شاب لطيف وجميل، شعرت ريّا أنه عالم بحالها، ربما أخبروه لكنه أراد على ما يبدو الاستماع الى وجهة نظرها أولاً. سألها عن علاقة القربى بينها وبينه، فأخبرته أنه صديق قديم لوالدها، كان مقيماً عندها وأقرباؤه يتنكّرون لواجباتهم

تجاهه ويتمنّعون عن فتح بيوتهم للمحفل والتعزية وانها في حيرة من أمرها. دفعت الممرضة من جديد باب غرفة العمليات فأطلقت المرأة تنهيدة عالية. لم يُفاجأ بموقف اقاربه، لا بل رفض حتى توجيه اللوم إليهم واعتبر أنه يجب التحرر من هذه العادات القديمة، وأنه درس الطبّ في مدينة مونبليه في فرنسا وشاهد هناك كيف يسجّى الميت في قاعة مجاورة للكنيسة، وكيف توجد شركات متخصصة تتعهد القيام بكل مستلزمات الجنازة والدفن. سألها إذا كان في البلدة دار يمكن استعمالها لهذا الغرض ثم وقف واقترب من صورة برج بيزا المعلقة على الحائط والتي لا يجد الأهل الجالسون على المقعد ما يتأملونه غيرها وهم ينتظرون خروج الطبيب ليطمئنهم على سلامة والدهم او شقيقهم. أصلحها لانها كانت مائلة لجهة اليمين. عندها تذكّرت ريّا بيت الأخوية.

هرع محمود الى رئيس الأخوية، ماذا كانت ستفعل بدون محمود؟ رئيس الأخوية رجل فظّ تعرفه، قال لمحمود إنه موافق ولو انه يعجب كيف أن رجلاً وحيداً لأهله، كان لوالده بيدر ومكبس زيتون، ويقال إنه فنان تباع لوحته الواحدة بمبلغ لا بأس به من المال ولا يجد من يهتم بطلعته. وزاد أن بيت الأخوية استُخدم مرة فقط من قَبل في حال وفاة، عندما دهست سيارة قبل ثلاثة أعوام رجلاً مقطوعاً معدماً، لو نادوا على الناس أن تقف في أرزاقها لوقف هو في الطريق العامة.

محمود على حق عندما يقول إن المسلمين أفضل حالاً من المسيحيين، فوالده توفي عند شروق الشمس، وعند الظهر انتهى كل شيء، الغسل والصلاة في الجامع والتعزية والدفن! يعرف هذه الامور جيداً محمود، يطلبونه من ريّا الى الأعراس والمحافل لأنه خبير ونشيط، وهو لا يفهم لماذا يتمسك المسيحيون بالجثة ليلاً ونهاراً كاملين وأحياناً يومين، تجلس حولها النساء، تتغامزن على قريبات الميت إن عصت الدموع على إحداهن، ويخاف أصحاب الدار من السرقة فيقفلون بالمفاتيح على ما خفّ وزنه وغلا ثمنه. وأكثر ما تضحكه الندابات اللواتي صرن يترفّعن عن القول القديم فيردّدن الأغاني التي يسمعنها من الراديو والتلفزيون. لا صوت ولا ذوق، وكلفة الواحدة تفوق كلفة مطرانين كما يقول محمود متهكماً.

هذا ما حصل لريّا. وصلت بديعة من دون دعوة، صمدت نفسها عند رأسه وراحت تعطي الأوامر وتقدم النصائح، تطالب بمروحة كهربائية من أجل تخفيف وطأة الحر، تسأل كم

كاهنا تمّ نعيهم ولماذا لا يزعج المطران نفسه ويحضر، فالرجل ابن أناس محترمين، معروف في بلاد الغربة وجدّه يكنّى بأبي الذهب. تمثيليتها المعهودة. قبل حضورها كانت النساء يصلين بهدوء، فحولت المحفل الى سيرك. ولا يعود هنالك من مجال لإسكاتها الا بأن يطلب منها أهل الميت ان تبدأ ندبها، وهي تريد أن تسمع هذه الدعوة كموافقة مسبقة على حصولها على الإكرامية، لأنها لو بدأت من دون دعوة استطاع أصحاب المحفل التنصّل من الدفع إذا تواقحوا. وقع اختيارها على ريّا منذ البداية، منذ دخولها، تحكي وتنظر اليها. كانت ريّا قد تركت محمود وحده في المستشفى يساعد في نقل الجثة الى بيت الأخوية وسرقت نفسها الى الدوّار لكي ترتدي فستاناً أسود وترتّب وجهها وشعرها. لم تشأ أن تبقى لابسة ثيابها العادية وتجلس في المحفل غير عابئة بهندامها مثل الاهل الذين يفاجئهم الموت فينشغلون بالحزن والبكاء عن هيئتهم وثيابهم. وعندما دخلت بيت الاخوية كانت النساء قد بدأن بالتوافد فدعونها للجلوس في الكراسي الامامية لكنها رفضت وتسللت الى وسط الغرفة كأنها حاضرة هنا للتعزية مثلها مثل غيرها. لا تحب المحافل، لا تحب اختلاط روائح العطر مع وجوه الموتى والشموع التي لا تنطفئ. لا تتحمل كل هذه الاجساد النسائية المتكوّمة في غرفة صغيرة خصيصاً عندما يكون الميت رجلاً. وبديعة تطاردها، توجه اليها الكلام. لم تجد ريّا الكلمات المناسبة للتخلص منها. افتكرت أن تقول لها تفضّلي او شيئاً من هذا القبيل، حتى أسعفتها امرأة جالسة في الخلف، لم تلتفت ريّا لتعرف من هي، رفعت صوتها لتُسمع الندابة:

- جودي يا بديعة، قولك حلو.

وكأنها تبلغها أن لعبتها مفهومة فما عليها إلا أن تتوقف عن الثرثرة وتسرع في ما جاءت من أجله. انشرحت بديعة وأصلحت جلستها، ثم طلبت كوب ماء شربته وهي لا تزال تحدّق في ريّا. سادت فترة صمت وانتظار أرادت بديعة أن تطيلها الى درجة اعتقدت معها النساء أنها لن تجد ما تقوله. وفجأة طلعت بصوتها الحاد مثل السكين، وأول ما ذكرت هند، أمها، وراحت تقول على قامتها وشعرها الذهبي وعينيها الخضراوين وحسن تدبيرها. طفرت الدموع من عيني ريّا. إنها المرة الثانية تبكي فيها خلال يومين. كان ذلك أقوى منها، أحست أنها لن تسيطر على نفسها فخرجت الى الشرفة من خجلها وصوت بديعة يلاحقها. بكت أكثر من نصف ساعة وخالت أنها لن تستطيع التوقف. لم يكن ينقصها سوى بديعة لكي تبكيها دموع قلبها، وترجع بعد الجناز لتقبض إجرتها منها. لكن البكاء أراحها وساعدها في البقاء واقفة.

لم تعرف كيف كان سينتهي هذا اليوم لولا مساعدة محمود ومساعدة دانيال الذي حضر فور شيوع الخبر. الدنيا تضرب بيد وتتلقى بيد. دانيال يأتي لزيارة موسى وكان متواعداً على لقاء معه يوم الأحد قبل الحادث بيوم واحد. يبدو لطيفاً ولا يظهر عليه الاستياء إلا عندما تقترب منه توتسي وهي ما إن يطلّ حتى تؤرنب أذنيها وتدور حوله. يرافق موسى الى سطح الطاحون، انه في منتهى التهذيب معه، يصرّ على أن يحمل له أغراضه، يساعده في تسلّق الدرج الخشبي الطويل، ينصب له السيبة، يركّز عليها القماشة ويقرّب له الكرسي، وهو يتوجه اليه بعبارة أستاذ يكرّرها في كل جملة. يتكلم معه دائماً بالفصحى. وموسى يطلب منه أحياناً ان يحضّر له الالوان فيقوم بالمهمة باجتهاد ظاهر، يضع الملّونة فوق ركبته ويظلّ يضرب الريشة

بعناية حتى يطلب منه موسى خدمة ثانية. وعندما تكتمل عدة الرسم يتراجع ويقف وراءه، ليس وراءه مباشرة بل على بعد ثلاثة أمتار تقريباً كأنه يريد أن يبقى خارج مجاله الحيوي، يتابع حركاته بنوع من الخشوع ولا يريد أن يفوت عليه اي حركة كأنه متأكد أن ما يراه لن يحدث مرة ثانية. اذا رفع موسى عينيه ليسرّحهما في المنظر المقابل للطاحون، يرفع هو ايضاً نظره في الاتجاه نفسه، واذا عاد موسى الى ريشته وقماشته يعود هو أيضاً الى تفحص اللوحة. موسى يجلس كعادته على طرف الكرسي لا يرخي جسمه قاعداً كالآخرين بل يشد رجله اليسرى في الارض ويلقي باقي جسمه على الكرسي فيرسم وهو نصف جالس. كانت ريّا تتسلى وهي تراقبهما من شباك غرفتها، موسى يلبس على رأسه قبعة القش البيضاء ودانيال واقف خلفه ساعتين واكثر، في عين الشمس لا يتزحزح من مكانه، ظلّه وحده يتمدد مع مرور الوقت فيغطي موسى ويتخطّاه الى طرف سطح الطاحون.

ساعدها كثيراً، استأجر الكراسي وأمّن نقلها الى بيت الأخوية، نصّ أوراق النعي وأملاها بنفسه على صاحب المطبعة ووزّعها بسيارته على كهنة القرى المجاورة. يعرف أسماء أقارب موسى جميعهم، وضع رجله على الكرسي وفي يده جريدة لا تفارقه، طواها ولفّها حتى صارت صلبة كفاية ليضرب بها ركبته وراح يسمّيهم من دون تردد، سحبة واحدة كما يجب أن يردوا في إعلان النعي، شقيقته في كاليفورنيا يعرف أولادها وأسماءهم الأميركية، نانسي، جايمس وكارول ومن ثم أبناء عمه. لم ينس أحداً. صيغة النعي في رأسه كاملة تنتظر موت موسى. يعرف كل التفاصيل عنه وقد أغفل عمداً اسم زوجته، ولما ذكّره صاحب المطبعة بما يحكى عن زوجة لموسى في المهجر وضع دانيال جريدته بين القلم الذي يكتب به الرجل والورقة وأجاب بانفعال:

- إياك أن تأتي على ذكرها! لقد خرجت هذه المرأة الأجنبية من حياته نهائياً منذ سنوات عديدة... لقد قطع الاستاذ موسى كل صلاته بالغرب وعاد الى وطنه.

تكلم بثقة العارف فسكت الرجل وهزّ رأسه موافقا. ساعد في كل الامور. خلال الجناز كان يدخل الى السكرستيا ويخرج كأنه في بيته، ربما بسبب مهنة والده، يهمس في أذن الكاهن الذي ألقى عظة التأبين، ينادي حملة الشموع كي يقتربوا من المذبح عند تلاوة الإنجيل. حتى أنه اندسّ بين الشبان الذين يحملون التابوت، وهو قصير يقف على رؤوس أصابعه لتصل يده الى أعلى، فلا يعود لوقوفه اي فائدة، وهم يطلبون منه أن يبتعد لأنه يضايقهم في المسير. رغم ذلك رافقهم حتى النهاية، حتى المقبرة.

فوق كل تلك المصيبة زعل منها رامي. غابت عنه يومين متتالين، وليلة سهرت على موسى مع النساء نام وحده عند كلارا ابنة خالها، وقد أخبرتها أنه حتى منتصف الليل لم يغمض له جفن ولم يقبل بألف حيلة الدخول الى غرفة النوم. بقي جالساً في الصالون أمام التلفزيون ممسكاً بيديه الاثنتين تمثال بيتهوفن. منذ وعت ريّا على الدنيا وهي ترى هذا الرجل النصفي الصغير المقطّب الحاجبين عندهم. ولم تعد تذكر بالضبط متى بدأت معهما تلك العادة، لا ينام رامي إلا ممسكاً شعرها بيد وتمثال بيتهوفن باليد الأخرى. تعتقد أنه في أول مرحلة حمله رامي من أمام المرآة الكبيرة الى فوق، الى غرفة النوم، وبعدها صار يأخذه معه الى الفراش. قبل ذلك لم يكن ينام الا اذا غنّت له يا مكحّل رمشك إيه يعني؟ ومنذ سنة تقريباً رسوا على هذه الطريقة الجديدة: لا يأوي رامي الى السرير إلا والتمثال بيد وشعر أمه بيد يشده بقوة بحيث لا تستطيع الحراك قبل أن يستسلم نهائياً للنوم، وغالباً ما تنام قبله من جرّاء تعبها.

لما جاءهم الدركي بخبر موسى انتبهت الى تمثال بيتهوفن

وحمّلته لمحمود مع ثياب رامي كي يوصلها لعند كلارا. ولما ذهبت يوم أمس لتأتي به بعدما انفكّ المحفل وجدته لا يزال متشبثاً بالتمثال، متجهّم الوجه، جالساً على كنبة للكبار تتدلى منها رجلاه فلا تصلان الى الارض. حذاؤه الاسود الصغير ممسوح وملمّع، وقد أعطته كلارا جوارب من عندها. لم ينتبه وإلا لما قبل بها. كان تمسكه ببيتهوفن طريقته في التأكيد المستمر انه يريد مغادرة بيت كلارا والعودة الى الدوّار، طريقته في ارغام نفسه على عدم نسيان ما يريد. مستنفر على الدوام. مثلها. جلست بجانبه وصارت تداعبه فيهرب منها. غفل عن تمثال بيتهوفن فدسّته خلف التلفزيون من دون ان يراها. هجم عليها وراح يضربها.

– اذهبي يا ريّا وانزعي هذا الفستان الأسود، انه ليس جميلاً.

في كل مرة يكون مستاءً منها يناديها ريّا. هي لم تكن هكذا في صغرها، كانت أمها تُسكتها بكلمة واحدة ولا تتمرد الا عندما يُقنع هراتش بعض الزبائن أن يتصوروا الى جانب الطاحون فتظل تبكي سحبة واحدة حتى يسمحوا لها بالوقوف معهم. رامي يقاتل طوال الوقت، واليوم لما نزل من اوتوكار المدرسة الساعة الواحدة والنصف، لم يقبل أن تأخذ عنه محفظة كتبه التي أصبحت ثقيلة، بل وقف على حافة الطريق عند أول الجسر وأمسك المحفظة بيديه الاثنتين وراء ظهره ليبعدها عنه. أسند جسمه على رجله اليمنى ورمى اليسرى أمامه، ثم أمال رقبته وغرّب بعينيه وسألها مفاتشاً:

– أين عمّو موسى؟

كأنها تخفيه عنه. لم تتوقّع السؤال، هذه أول مرة يلفظ فيها اسم موسى. ارتبكت ولم تعرف بماذا تجيبه. مرّ على

الجسر جرّار زراعي أحدث ضجيجاً عالياً ومتواصلاً. مدّت اليه يدها لتصطحبه الى البيت فرفض مجدداً لا بل ضرب رجله في الأرض.

- قولي: أين عمّو موسى؟

مرّت سيارة مسرعة فتطاير عليهما غبار الطريق. لم يبق أمامها سوى أن تحمله هو والحقيبة وتنزل به، وهو يضربها ممانعاً. تناولت معه طعام الغذاء في الداخل. كان الطقس جيداً لكنها لم تكن قادرة على الاقتراب من النهر. جلست قبالته الى الطاولة وحاولت مراضاته، فربطت فوطة حول عنقها وأخرى حول عنقه ثم جمعت يديها وقرّبتهما من طرف الطاولة وطلبت منه أن يقلّدها وأن يكرّر من ورائها صلاة الشكر بالإيطالية والتي كانت سور أنّا-ماريا تجبر التلميذات على تلاوتها ست مرات في اليوم، قبل الأكل وبعده. كما راحت ريّا تأكل فخذ الدجاج بالشوكة والسكين وتتصنع أمامه متكلمة بصوت نحيف وهي تفتل بأصابعها:

- ياي !!! هذا الفروج طيّب طيّب. محموووود! هات لرامي قطعة أخرى. مسيو؟ هل تفضّل الفخذ أم السفينة؟ ...

حتى أضحكته. ضحك حتى دمعت عيناه وتشردق مرتين ولم يستسلم، إذ انقبض وجهه بعد قليل كأنه تذكّر شيئاً ما، وأمسك عظمة الدجاج التي في صحنه ورماها أرضاً. أوقفت ريّا اللعبة وصعدا الى غرفتهما. تمددت هي على السرير وجلس هو يقرأ استريكس. انه لا يعرف القراءة بعد، فيمضي كل يوم وقتاً طويلا يتأمل الرسوم ولا يشبع. تراقبه كيف يقلّب الصفحات ببطء شديد وهو يتمتم كأنه يخبر الحكاية بدل أن يقرأها او كأنه يدّعي قراءتها، ولم تتمكن حتى الآن أن تعرف هل كان يتفوّه بكلام مفهوم ومتصل، أم أنه يردد لنفسه أصواتاً

وكلمات مبعثرة. لكنه عندما يفتح أحد كتب استريكس يجلس بعيداً عنها فلا يعود في إمكانها متابعته أو النظر اليه مباشرة، لانه إذا انتبه الى ذلك يتوقف ويطلب منها أن تنظر الى مكان آخر.

تركت رامي في الغرفة لوحده، ونزلت لأنها سمعت حركة سعيدة في المطبخ، ووقع الصحون على مجلى الرخام. في المطعم زبائن. نزلت لأنها متشوقة لاستقبال الناس واطعامهم، للنهوض صباحاً وارسال رامي الى المدرسة وترتيب الغرفة والتحقق من مشتريات محمود وتقطيع اللحمة ودقّ الحمص وتقشير الباذنجان، لتحضير البابا غنّوج والتأكد من نظافة شراشف الطاولات ونظافة الصحون وارسال محمود ليأتي بالماء من عين كفرا لأن مياه نبع القاضي لم تعد صالحة للشرب ولا يمكن تقديمها للزبائن... تود لو يصل آخر النهار وهي منهكة فيأخذها النوم من دون عظيم جدال.

هؤلاء هم أول زبائن يدخلون المطعم منذ يوم الأحد الماضي، فهي أقفلت يومين وطلبت من محمود أن يلصق ورقة نعي على جذع الدلبة الكبيرة. رجلان وامرأة، لا تعرفهم ربّا. معهم سيارة فولفو عتيقة فقدت لونها تقريباً وكساها الغبار. انهم على الأرجح من عابري السبيل، يقرأون اللافتة عند مطلع الجسر فيتوقفون ليأكلوا لقمة يتابعون بعدها رحلتهم.

هذا صنف جديد من الزبائن لم تألفه ريّا في الدوّار قبل الحرب. كان الناس يقصدون الدوّار، لا يعرّجون عليه، يتواعدون، يتعازمون، يرتدي الرجال الثياب التي يرونها مناسبة، يلقون نظرة على أنفسهم في المرآة بينما النساء يُكثرن من العطر ويتحسبن لبرودة الجو على ضفة النهر فيرمين كنزة من الصوف الناعم فوق الفستان. لا تذكر رواد مطعمهم إلا حليقي الذقن مصففي الشعر، يأتون صحبة رجال فقط او برفقة زوجاتهم. كان من النادر جداً رؤية رجلين وامرأة مثل هؤلاء، واي امرأة! تتكلم بصوت عال وشعرها مصبوغ بلون أشقر فاقع. طلبوا قنينة ويسكي كبيرة. عاونت محمود وسعيدة، أخرجت مكعبات الثلج من البراد، ودقّت الثوم للسلطة فقط لتشعر أن الدنيا عادت الى مكانها.

لم تُطل مكوثها في المطبخ، وما ان انتهوا من تحضير الطلبية حتى صعدت مجدداً الى غرفتها. بقاؤها مع سعيدة سيفتح باب الحديث حول ميتة موسى، وريّا ليست مستعدة بعد للكلام. وصلت الى الطابق العلوي فوجدت رامي واقفا امام باب الغرفة المغلقة، حافي القدمين، يضرب الباب بقبضته الصغيرة وينادي بصوت هادئ:

- عمّو موسى...

ينتظر ويعيد:

- موسى...

ثلاثة أشهر وموسى يأتيه بألواح الشوكولا والالعاب، حتى أنه صنع له طائرة من ورق وعرض عليه اصطحابه الى السينما، ورامي لا يتنازل ويبتسم له ولو ابتسامة واحدة. لم تستطع اقناعه أن يعطيه يده ولو مرة ليتمشيا معاً في اتجاه الدير، واليوم يصرّ على رؤيته! لم ترتد الفستان الاسود كي لا تلفت

نظره... وهو لا يتوقف عن قرع الباب. لم تكن ريّا تنوي فتح هذا الباب وحدها، كانت تنوي دعوة أحد أقربائه او أقربائها أو الكاهن، المهم أن لا تدخل الغرفة بمفردها. لم يترك لها رامي الخيار اذ راح يضرب الباب بقبضته من دون توقف هذه المرة.

أخذت المفتاح من فوق حاجب الباب حيث يضعه موسى كلما غادر الغرفة، ودخلت. لحق بها رامي. السرير نظيف ومرتب أحسن ترتيب. لقد تعوّد موسى سنوات طويلة العيش وحده. أدوات الرسم مكركبة على الطاولة. لم تلمس شيئاً ولم تقترب من شيء. ما زالت الغرفة على حالها، شباك مفتوح وشباك مغلق. تقدم رامي نحو السيبة حيث يضع موسى اللوحة التي يعمل عليها ودلّ الى الرسم باصبعه وقال بصوت المنتصر:

- أرأيت؟

فسألته:

- ما هذا يا حبيبي؟

لم يجبها بل أكمل انفعاله:

- أرأيت؟ كذبوا عليّ.

فسألته مجدداً:

- من كذب عليك يا رامي؟

رفاقه في الصف ادّعوا أن الرجل الساكن عندهم قد غرق في النهر ومات ورامي لم يصدّقهم وتشاجر معهم وضربهم وبكى وتدخّلت مدموزيل أيفون. سألها:

- هل عمّو موسى من أقاربنا؟

فسألته:

- لماذا لم تصدّقهم يا رامي؟

فأجابها وهو يدلّها مرة ثانية الى اللوحة:

- إنه لم يكمل رسمي بعد فكيف يموت؟

استطاع موسى اقناعه، يوم الأحد بعد الظهر، أن يجلس قبالته، وبدأ يرسمه وهو يأكل تفاحة وينظر الى ماء النهر. رسم فقط جزءاً من كرسي وتخطيطاً لشخص جالس بدأ بتلوين بنطلونه، انه بنطلون رامي الأخضر المقلّم بالأسود. وقفت هي أمام اللوحة، بينما ذهب رامي الى الشباك المفتوح ليدلها الى اي طاولة كان جالساً عندما رسمه موسى. تساءلت لماذا بدأ بتلوين بنطلون رامي والزاوية اليسرى من اللوحة بينما العناصر الباقية لا تزال مخططة بالفحم، التفاحة في يد رامي والشجرة والكرسي. لم يرسم الوجه، اكتفى بتدويرة الرأس. ورامي يسألها وهو لا يزال يتطلع من النافذة:

- يا ماما، هناك كرسيان حول الطاولة التي كنت جالساً اليها، لماذا لم يصوّر موسى الكرسي الثانية أيضاً؟

كانت ربّما تخاف منه وهو يرسم. ما إن يمسك القلم أو قطعة الفحم حتى تشتعل عيناه وتصير نظراته مفترسة. إلتهم رامي بنظراته. تراجع رامي عن الشباك واقترب من اللوحة، وقف الى جانبها وبقيا صامتين بعض الوقت. لايزال موسى هنا، لا تزال تلك الرائحة هنا، في غرفة أبيها وأمها. رامي مضحك، نصفه ملوّن تلويناً دقيقاً ونصفه الأعلى مخطط بقلم الرصاص. كاد يأكل التفاحة بأكملها لو لم يوقفه موسى طالباً منه أن يبقيها في يده كما هي، نصف مقضومة. فوقها لمسة حمراء صغيرة كأن موسى بدأ بتلوين التفاحة ثم عدل عن ذلك.

فجأة سألها:

- كيف غرق موسى في النهر؟ انه ليس عميقاً.

اقتنع رامي في هذه اللحظة أن موسى مات، ربما من سكوت ريّا الواقفة وسط الغرفة تستنشق تلك الرائحة التي أعادها معه موسى بشارة من نيويورك بعد ثلاثين عاماً وتبخّر في الأسرّة، في الحيطان وفي خزانة ثياب والديها. من يوم الاثنين وهي لا تفكر الا بالنهر وبأمها.

- هل تخاف النهر يا رامي؟

- نعم.

عاد الى الشباك، تطلع الى تحت، الى المطعم، وسألها وهو يشير الى الرجلين والمرأة:

- لماذا شعرك ليس أشقر مثل تلك المرأة؟

لم تجبه.

- لا، لا أخاف النهر، ان محمود يمشي فيه.

صحيح! ان محمود ينزل فيه بجزمة الكاوتشوك لينظفه في فصل الشحّ عندما ينكشف قعره وتقوى فيه تلك الرائحة الكريهة. ريّا ستظل تخاف منه مع انها ولدت وعاشت بقربه. ألا يسمونها ريّا النهر ليميّزوها عن ريّا اخرى تحمل اسم ريّا ابوخطار نفسه؟ عندما تتشابه الاسماء يفرقونها بواسطة اسم الاب إلا هي، فالنهر حصتها.

عندما انحلّ المحفل يوم أمس وعادت برامي الى البيت واقترب كعادته من الحافة ليرمي ما في يده في الماء جذبته من يده، خافت عليه أن يقع. صارت تعرف الآن لماذا يصلّب باخوس كل يوم فوق النهر وليس مرة واحدة بل ثلاثاً. تراه يمرّ بعد الظهر، الساعة الرابعة في الشتاء والساعة الخامسة في الصيف. اليوم أيضاً تأملته، كانت تنقّي العدس للمجدّرة لما رأته يتوقف لاهثا ما ان وصل الى أول الجسر بعد الطلعة حيث تنكشف له قبة كنيسة دير مار سمعان، ففتح ذراعيه في اتجاهها وأغمض عينيه وتمتم صلاة قصيرة. لا تشتري عدساً نظيفاً في أكياس النيلون، تريد أن تنقّيه في مقلة الكبّة لتسمع صوت ارتطام أظافرها بالالمنيوم واصطدام الحبوب بحرف المقلة ولترفع يدها كما كانت تفعل أمها وترمي الى البعيد الحجارة السوداء الصغيرة كلما وقعت عليها بين العدس. موسى تذكّر باخوس وأكد لريّا أنه قبل سفره الى نيويورك كان يراه يقف في المكان نفسه ويصلّي، ويعرف موسى منذ ذلك الوقت أن باخوس يزرع اللوبياء والفول في أرض ملك الدير، ولا يدفع

ايجارها للرهبنة فيعوّض على مار سمعان بتلك الصلاة القصيرة. لما انتهى اليوم من صلاته تطلع في اتجاه المطعم. أشاحت ريّا بنظرها عنه ثم انكبّت على مقلة العدس. انه يعرف موسى ويلوّح له بيده اذا شاهده جالساً يرسم على سطح الطاحون. تعتقد ريّا أن موسى كان يراه ولا يرد له التحية. اليوم أيضاً رسم اشارة الصليب ثلاث مرات فوق الماء وهزّ رأسه وأماله ليتمكن من رؤية النهر الى أبعد مدى ممكن من بين جذوع شجر الدلب وأغصانها، ربما ليقيس كم هي بعيدة من هنا بركة الست دلال. أمالت رأسها لكي تتمكن من أن تراه من دون أن تحدّق به. استدار مجدداً في اتجاه كنيسة الدير وفتح ذراعيه مرة اخرى كأنه يوكل المسألة كلها الى مار سمعان ومشى.

كانت ريّا تتصور قبل غرق موسى أن باخوس يصلّب على الماء كما ترسم المرأة باصبعها صليباً على العجين ليطلع او تهمس باسم الله على الزيت قبل أن تدلقه في الخابية. اليوم أيقنت أن باخوس يصلّب على النهر كي يأمن شرّه. باخوس يخشى الماء كما يخشى النار ربما. لا بد أنه رأى الطوفة سنة ١٩٥٦، بيته ليس بعيداً عن الدوّار. أمها كانت دائماً تقول إن الطوفة أضرّت بهم أكثر من الثورة. وصلت الماء الى الطابق الثاني فبقي أبوها وأمها وجدها خليل واقفين لا يستطيعون الجلوس حتى انحسر النهر عند طلوع الضوء. كان الجيش قد ناداهم من دير مار سمعان لينصح لهم ان لا يحاولوا الخروج، فبقوا في الماء حتى ركابهم، وقد صلّى الختيار الوردية ثلاث مرات. أكل الفزعة كلها جدها خليل لأنه كان نائماً في المطبخ في الطابق الارضي عندما دخل عليه النهر، فاستيقظ مذعوراً ومبللاً وهرع الى الطابق العلوي وهو ينادي بكل ما أوتي من قوة:

- المسيحي يهرب!

كانت والدة ريّا تؤكد أنه منذ يوم الطوفة بدأ والد زوجها يتراجع بسرعة.

أخذ النهر المطعم كله، الطاولات والكراسي والطناجر. استرجعوا البراد محطماً من المخلط، عند ملتقى النهرين. بعد الطوفة صار جدها خليل يحكي عن الضابط الفرنسي كارتون الذي أشرف على جر مياه الشفة من النبع الى البلدة وفي حوزته خرائط النهر، يقول جدها إن كارتون هذا وقف مرة على الطاولة بعد زجاجة البيرة السابعة وقال له إن انعطاف النهر عند المطعم ليس طبيعياً وأنه ذات يوم سيستعيد مجراه الاصلي. كانت ريّا صغيرة من عمر رامي، ولم تكن نائمة في الدوّار ليلة الطوفة. ولما جاؤوا بها بعد بضعة أيام، كان فجور النهر لا يزال بادياً على الاشجار المخلّعة والحيطان المصبوغة بلون الوحل. وحشة لا يمكن التصور أن نهر الدوّار الصغير ارتكبها. استبدل الجيش الجسر القديم الذي هدمته المياه بجسر حديد وبقي أهلها أشهراً يستيقظون في الليل كلما مرت عليه سيارة لكثرة ما تُحدثه من طرطقة. بعدها صار النهر عاقلاً ويكاد ينضب في آخر الصيف من كل سنة، اطمأن الناس اليه من زمان. صحيح أن الثلج في فترة ذوبان فوق الجبال وأن الماء كانت عالية وعكرة يوم الاثنين، لكن في هذا النهر شيطانا ما كي يستطيع أن يجرف رجلاً في حجم موسى.

وجدوه عند بركة الست دلال وقد اصطدم جسمه بشجرة الصفصاف، وبقي هناك أربع ساعات قبل أن يراه ابن الشدياق وهو يجمع حمل قصب لوالده. كان موسى يطفو على ظهره فانعقد لسان الصبي، وقد أخبرت أمه ريّا في المحفل أنه رمى

القصب عن ظهره وراح يركض حتى وصل الى البيت أصفر منهوكاً، وأول كلام استطاع قوله بعدما جاءته أمه بكوب ماء هو أن هناك رجلاً يرتدي طقماً أبيض سابحاً في النهر وعيناه مفتوحتان. موسى طاف في الدنيا ثلاثين عاماً ليعود الى هنا ويغرق في بركة الست دلال ويفتح على ريّا أبواباً اعتقدت أن الايام أوصدتها.

ظل وقتاً طويلاً يراسلهم، يبعث اليهم بطاقات بريدية. تعود ريّا من بيروت، مرة في الشهر، فالراهبات ما كن يسمحن للتلميذات الداخليات بأكثر من ذلك، فتجد بطاقة جديدة مرسلة من موسى محشورة بين المرآة الكبيرة واطارها الخشبي. كأن أباها وأمها فخوران بتسلّم هذه الصور، فيعرضانها أمام الزبائن أو ربما يعتقدان أنهما يزيّنان بها مدخل المطعم. مرتين أو ثلاثاً من باريس ومرات عديدة من نيويورك وبوسطن. صورة للبيت الأبيض كتب على ظهرها العزيزين هند وفؤاد... بهذه العبارة يبدأ دائماً كتابته لوالديها أتذكركم كثيراً في القارة الجديدة. ان رئيس الولايات المتحدة الأميركية ينزل بنفسه ليشتري قمصانه من المخازن العامة وهو لا يملك في بلده شقة أو منزلاً. إنه لفخر للعالم. كانت ريّا تتخيل في ذلك الوقت أن موسى مقيم هناك في بيت أو في حي يمكنه منه معرفة أحوال البلاد كلها. أهو بسبب صورة البيت الأبيض التي اعتقدت أنه ساكن جواره يلقي التحية كل صباح على الرئيس جون كينيدي وزوجته؟ تذكر مرة صورة لكلارك غايبل

وكارول لومبارد - هذان أيضاً تصورت أنه يعرفهما شخصياً - وعلى قفا الصورة توصيات لوالدها كي يضمّن محوّطة الزيتون في الحريق بعد أن يؤمّن لهم منها مؤونتهم من الزيت، شرط أن لا يسمح لأحد من أبناء عم موسى الاقتراب منها. يرسل دائماً الى والدها تعليمات في شأن أرزاقه لم تكن ريّا تفهمها أو تتوقف عندها. نادراً ما يخبرهم عن رسمه، وهي في كل حال لم تره مرة واحدة يرسم قبل سفره الى أميركا. كان يأتي الى الدوّار لابساً ثياباً جديدة، يجلس مع والدها ساعات طويلة يتكلمان عن الشعر. يصعد أبوها أحياناً الى غرفة النوم ويأتي بديوان اشعار المتنبي الكاملة يقرأ لموسى منه صفحات، ابياتا تتوقع ريّا نهايتها من تلويحة يده. ولما وصلت الى الصفوف الثانوية وبدأ الاستاذ فيّاض يسهب في شرح قصائد المتنبي كانت ريّا تكمل له الابيات فتعجّب من أمرها. موسى يغمض عينيه أو يسرح في البعيد، يطلب من فؤاد احيانا أن يعيد قراءة بيت او يطيّب له عالياً. يتهيأ لريّا عندما تستعيد صورة أبيها وموسى جالسين الى الطاولة الأخيرة يتجادلان في قوافي المتنبي أن شجر الدلب كان عبياً في ذلك الوقت تكاد لا تخترقه أشعة الشمس وان الايام كانت واقفة تنتظر. كانت تنام متلهفة لمجيء الصباح والصباح يجرجر رجليه ويتغنّج في الطلوع.

مرة واحدة أخبرهم عن لوحاته. حكاية طويلة حشرها بخطه الأنيق الرفيع على احدى البطاقات التي أرسلها من بوسطن، ويذكّر فيها والديّ ريّا بصورة الباب الخشبي المخلّع، المنبعث منه ضوء النهار الى داخل البيت العتيق، وهي لوحة اشترك بها في معرض الخريف في قصر الاونيسكو في بيروت ولما ذهب ليسترجعها بعد انتهاء المعرض أخبروه أن رجلاً

أميركياً وقف طويلاً أمامها ثم غاب ورجع بعد الظهر برفقة امرأة شابة وجميلة، فوقفا مجدداً أمام اللوحة ثم قرّرا شراءها. متنا ليرة في أوائل الخمسينات! والد ريّا أخبرها مرة عن هذا الباب، وكيف وقف موسى يرسمه وقد تجمّع حوله أولاد الحارة وكيف استهجن أبو موسى المسألة.

- يا ابني، تريد أن تُضحك الناس علينا وترسم باب بيت حنّة الخربان بدل أن ترسم الامير فخرالدين راكباً على حصانه وشاهراً سيفه؟

يقول موسى انه التقى الأميركي وزوجته في حفلة راقية أقامها النادي اللبناني في بوسطن، والرجل كان يعمل ملحقا عسكرياً في السفارة الأميركية في بيروت، وقد تقاعد من وظيفته وله أصدقاء ين اللبنانيين المقيمين في بوسطن يدعونه الى حفلاتهم، وأخبره أن لوحة الباب الخشبي معلقة في صالون داره، ويجلس كل يوم بعد الغداء على كنبة قبالتها يدخن سيجاراً، فتأتي زوجته بالقهوة ويبقيان اكثر من ساعة صامتين يتأملان الضوء المنبعث من فتحة هذا الباب، فيذكّرهما بضوء لبنان وبحره، وأن الزوجين متفقان انه اذا ما أبلغا أن منزلهما سيحترق وأن في إمكانهما إنقاذ غرض واحد منه فسيختاران بالتأكيد رسمة الباب المفتوح على السماء كما يسمّونها.

تكلم عن ريّا في احدى رسائله من باريس، يكتب دائماً في أعلى البطاقة اسم باريس، ويضيف المدينة المسورة بالحرية، ومن ثم يذكر التاريخ، ١٥ حزيران ١٩٦٤ مثلاً. على البطاقة صورة لوحة لفتاة جالسة على شرفة في كرسي هزاز تقرأ في كتاب صغير، ووراءها دالية، وشمس تغيب وقد طالب موسى فؤاداً وهنداً أن يشجّعا ريّا الحبيبة على المطالعة. اشتروا

لها مسرحيات شكسبير وروايات جرجي زيدان. تذكر ريّا في تلك السنة أن والدها جاءها بكتاب ملوك العرب لأمين الريحاني، فقرأت منه خمسين صفحة وسرعان ما سئمت من أخبار الملك حسين والإمام يحيى، فوضعت الكتاب على الطاولة في غرفتها حيث بقي أكثر من سنتين وعلى غلافه رسم أمير يحمل في وسطه سيفاً معقوفاً.

انقطعت مراسلات موسى وبعد فترة جاء من يخبر أهلها أنه تزوج. يكتب الجملة العربية بخط أشبه ما يكون بالحرف السرياني حتى أنك اذا أبعدت رسائله عن عينيك قليلاً اعتقدتها سريانية كما في بعض صفحات كتاب القدّاس. كان والد ريّا يقرأ رسائل موسى بسهولة، أما هي فتنتزع البطاقة عن المرآة وتقرأها على مهل، وهي تأكل، لأنها كانت تصل من بيروت ميتة جوعا. تحب ريّا الأكل والقراءة في آن واحد.

دانيال يعرف أيضاً ان موسى يحب السريانية. أول من أمس، ليلة سهروا عليه، دخل دانيال على النساء في نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، كنّ خمس نساء فقط، ثلاث نائمات على كراسيهن، وريّا مستيقظة تتحدث مع نور، الارملة التي نذرت نفسها للسهر على الاموات ومساعدة أهلهم. لم تكن ريّا تعرف اذا كان عليها أن تدفع لها ام لا. هذه امرأة في قلبها رحمة الله. كان ضوء النيون الازرق يتسرب الى الغرفة من الشارع وأصوات المارة القلائل الساعين الى بيوتهم في هذا الوقت المتأخر تصل الى مسمعها. لما دخل دانيال افترضت انه جاء يتشاور معها في أمر يتعلق بجناز الغد، لكنه بقي واقفاً حانياً رأسه قليلاً كأنه يصلّي في قلبه، وفجأة رفع صوته وبدأ يرتّل بالسريانية على لحن تشفّعي فينا، فاستفاقت النساء الغافيات، ورافقته نور بصوت منخفض. في صوت دانيال بحّة حلوة، بقي يرتّل اكثر من نصف ساعة وكاد يتلو القداس الماروني بأكمله. ولما استدار ليغادر الغرفة نظر الى ريّا وقال بجدية وبلهجته الفصيحة:

- من المؤكد أن الاستاذ موسى سعيد جداً الآن.

لم تشعر به إلا وقد عاد يربت على كتفها ويهمس قبل أن ينسحب:

- لقد رسم صورة رائعة لوالدتك. إنها رمز لجمال نساء بلادنا.

يحبه كثيراً. اعتقدت ريّا في البداية أنه معجب به لأنه فنان ومشهور، لكن ما رأته منه الاسبوع الماضي جعلها تفكر أن بينهما أمراً آخر. صباح الأحد، قبل يوم من الحادثة جاء ليزوره الساعة التاسعة تقريباً. كان ينتعل حذاءً رياضياً لا يتناسب وثيابه العادية وقامته القصيرة. سألها عنه، ولما عرف أنه خرج ولم يخبرها عن وجهته بدا محتارا لايعرف كيف يتصرف. ولما سألته هل يريدها أن تبلغ موسى رسالة ما، تردد بعض الوقت ثم قال إنه يفضل العودة في ما بعد ليلتقيه شخصياً.

- قولي له فقط، من فضلك، إذا عاد باكراً، إننا سننتظره حتى الساعة العاشرة ومن بعدها ننطلق بدونه.

لم يبد عليه الانزعاج، فان دانيال من الاشخاص الذين لا يمكن معرفة مقدار الاهمية التي يعطونها للأشياء. لم يرجع دانيال بعد ظهر يوم الاحد، ولما فرغ المطعم من الزبائن وبدأ موسى يرسم رامي وهو يأكل التفاحة، تذكرت ريّا مجيء دانيال فطلبت من محمود إبلاغ موسى أن دانيال جاء على الموعد ولم يجده. التفت محمود مستغرباً، فمن حيث هي جالسة يمكنها التكلم مع موسى حتى من دون أن ترفع صوتها. محمود كتوم ويحبها فلم يسأل ولم يعترض. اقترب من موسى وأخبره عن دانيال فهزّ موسى رأسه من دون أن يجيب أو يرفع عينه عن رامي ومن دون أن يلتفت الى محمود أو الى ريّا.

الحقيقة أنها تدرك الآن بعدما ارتاح رأسها قليلاً، أن سلوكه في الاسبوع الماضي كان غريباً. تغيرت حركته. طوال الثلاثة أشهر التي أمضاها هنا كان برنامجه اليومي معروفاً. يستيقظ قبل الضوء، ويخرج كل يوم في نزهة يعود منها باكراً، قبل مرور اوتوكار مدرسة رامي. يسلك طريق الدير نحو التلة ويعود في الطريق نفسها. لا يحمل معه أي أدوات رسم، ويرجع احياناً وفي يده باقة جرجير او زهر دم يسوع او حيّال توت رفيع يضرب به رجله وهو يمشي. أخبرها أناس من الجوار أنهم يشاهدونه جالساً في أعلى التلة كأنه ينتظر شروق الشمس لينزل. بعد ذلك تحضّر له ريّا ركوة قهوة بدون سكر وتجلس معه لبضعة دقائق فقط اذ تدّعي أن عندها مشواراً الى البلدة أو شغلاً في المطبخ فتتركه وحده يخرطش رسوماً بالقلم الرصاص على أوراقه.

كانت تتحاشى اللقاء به لوحدها، لا تقترب من حيث يجلس الا برفقة رامي ولا تصعد الى الطابق العلوي اذا كان يرتاح في غرفته. تعرف منذ البداية أن الحديث بينهما ليس مأمون النتيجة. ترغب في سؤاله عن الماضي ولا تجرؤ. لو تتمكن من جعله يخبرها عن أحوال الدنيا لما كانت هي صغيرة، بين ١٩٥٧ و١٩٦٥، عن بيروت ومقاهي ساحة البرج مثلاً. تلك المقاهي التي كانت تبدو في حالة عرس دائم عندما تمر ريّا من أمامها قاصدة مدرسة الراهبات ويدها بيد أمها. رجال يلعبون البليارد، وآخرون يتناقشون بصوت عال وسط دخان الاراكيل ورائحة الكفتة المشوية وصراخ الباعة والشمس الساطعة. كانت ريّا ترغب في أن تسأله من أين تأتي النساء اللواتي كانت تراهنّ خلف مقهى الجمهورية، عندما تسلك سيارة التاكسي الآتية بهم من الشمال الشوارع الضيقة هناك

قبل أن تصل الى ساحة البرج، نساء يجلسن مثل الرجال وينظرن الى المارة بازدراء. تحب أن تعرف أين أصبحن الآن واحدة واحدة، كيف تلاشين والى أية بيوت التجأن بعدما تهدّمت الدنيا كلها هناك وأزيلت السوق العمومية بواسطة الجرافات، فبانت الارض المسطحة تحتها. الحقيقة أن موسى مقلّ، والأحاديث النادرة والسريعة بينهما دارت حول مدرسة رامي واذا كانت المعلمات فيها حائزات شهادات عالية، او اذا كان المطعم ما يزال يدرّ عليها مدخولاً يكفي لتعيش بطريقة لائقة هي وابنها. يسأل عن الاسعار من كيلو الليمون الافندي الى متر الارض في العقبة، التي لا يزال يسميها عقبة ابن حسني حيث ورث أيضاً عن أبيه قطعة أرض صارت مرغوبة للبناء. مرة واحدة فقط سألها عن زوجها فلم تترك مجالاً للتوسع في الموضوع. وهو كأنه يتعب من الكلام فيسكت. تشرب ريّا القهوة بسرعة وتنصرف لأشغالها. تحضّر له الغداء فيأكل باكراً، في الساعة الحادية عشرة، ويصعد الى غرفته قبل أن يصل زبائن الظهر. دانيال يأتي في نحو الثالثة والنصف فيخرجان معاً، ويوم لا يأتي فيه دانيال يساعده محمود في حمل السيبة ويعود ضاحكاً ويقول إن موسى يرفض أن يرسمه لأنه بشع. يرجع عند غياب الشمس، يحاول التحرش برامي، يأكل أكلاً خفيفاً ويصعد الى غرفته لينام باكراً. هكذا كل يوم. نادراً ما يذهب الى البلدة.

نزل الى بيروت مرتين، مرة أقلته ريّا بسيارتها لكنها طلبت من محمود مرافقتهما. اشترى من احدى المكتبات في منطقة الدورة أنابيب للتلوين وجدها باهظة الثمن قياساً على أسعارها في نيويورك. ثم طلب من ريّا أن توصله الى الاشرفية، الى شارع أديب أسحق وطلب منهما انتظاره أمام إحدى البنايات.

عاد بعد دقائق، ركب السيارة وهو يتكلم مع نفسه :

- هي أيضاً ماتت!

سالته ريّا بدون تفكير :

- من؟

أخبرها أنه أحب رؤية المرأة التي كانت تركز عارية أمامه وأمام رسامين آخرين من أصدقائه، أخبره الجيران أنها توفيت منذ سنتين. لم يشأ أن يسألهم تفاصيل اضافية. اسمها أمينة.

نزل مرة بالتاكسي الى بيروت. ذهب بمفرده ولما عاد كان الانهاك بادياً على وجهه. قال فقط إنه نزل الى ساحة البرج وشاهد الخراب.

هذه حياته طوال إقامته عندها، يمضي النهار كله في الدوّار وحوله. لا تعرف ريّا ماذا حلّ به في الأسبوع الماضي، فصار ما إن يعود من مشوار الصباح الى تلة الذهب، حتى ينطلق الى البلدة من دون أن يشرب القهوة ومن دون أن يفصح عن وجهته مثلما يفعل عادة حين يبلّغ محمود مثلاً:

- قل لريّا إني سأتمشى الى البلدة لأشتري دواء وأرجع عند الظهر.

صار يتأخر في العودة أيضاً، يبقى الى الرابعة تقريبا حتى انه لم يرجع، يوم الجمعة، الا في المساء. يوم السبت رجع الى عادته، وعندما جلبت له ريّا القهوة حوالى التاسعة وجالسته قليلا، نزع قبعته ووضعها على الطاولة، سحب منديله الأبيض الذي لا يفارقه ومسح به ببطء جبهته العريضة، ثم أصلح جلسته وبدأ يحكي. لا تعرف ريّا لماذا لم تهرب، لماذا بقيت مسمّرة على الكرسي. كان الطقس جميلاً ومعنوياتها عالية في هذا الصباح فقرّرت المواجهة. لن تتلطّى الى ما لا نهاية برامي وبمحمود.

ـدأ بجدته، اسمها مريانا، لم يسمّوا أخته على اسمها.
أمه مراراً عن السبب وكانت دائماً تجيبه:
- أبوك لم يقبل.
سافرت مريانا الى أميركا وحدها، تركت جده ووالده في
ـة من عمره. موسى لا يعرف جدته، معه صورة لها فقط
ـراقه في غرفته، تبدو فيها واقفة الى جانب صندوق من
ـيق السفر القديمة وعلى رأسها منديل. وعد ريّا بأن يريها
ـ ما ان تقع بين يديه. كرر اسم جدته مرات عدة، مريانا
ة، يقوله ويشد عليه كأنه يريد أن يسمع رنته، أو لأن الأثر
ـد المحسوس الباقي من هذه المرأة هو اسمها. كرره مثلما
هي أحياناً وحدها اسم سور جوزيفا دي سانتا ماريّا،
ـها في المدرسة الايطالية. هي أيضاً لا تعرف عنها الكثير،
ـرؤ يوماً أن تسألها من أية مدينة جاءت، ولماذا جاءت الى
ـت تعلّم البنات الترتيب واللغة الايطالية، بيلليسيمو وليس
ـيمو، كانتاااره، مونغولفييري... تضربهن على أياديهن
ـدنها الى الاكل قبل الصلاة، علّمتهن الجلوس والصدق
ـنو. أخذت الحرب المدرسة الايطالية وانسحبت الرهبنة
ـنان. أخبروها أن سور جوزيفا رفضت مغادرة بيروت،
ماتت في مأوى للعجزة تابع للراهبات الانطونيات. لا
ـ هل كانت ستتحمل رؤيتها عجوزاً تحتاج لمن يقودها
ـمها، سور جوزيفا دي سانتا ماريّا.
ـوسى لا يعرف جدته، سمع عنها القليل مما أخبرته إياه
ويعرف أيضاً أن القسم الاكبر من أرزاق والده كلها من
ـا النبّارة، بستان قناطر البرنس وكذلك زيتون الحريق.
ـت الى ابنها ليرات الذهب الانكليزية في تنك الكاز.
ـون أنها اشتغلت بالكشّة، وسمع موسى مرة أنها أقامت

في مدينة تدعى فورت واين. تحمل الكشّة على ظهرها وتدور على البيوت في الأرياف، وأصعب ما كانت تواجهه هو كلاب الحراسة في المزارع، تهجم على الباعة وتعضّهم في أيديهم. أخبرته أمه أيضاً ان مريانا سافرت من طرابلس مع ثلاث نساء أخريات أيام الحكم التركي. من طرابلس الى مرسيليا احتل المسلمون سطح الباخرة وافترش المسيحيون قعرها. بين مرسيليا ونيويورك تبادلوا الامكنة. توفيت بعد عودتها بأشهر، كانت أمه تقول إنهن يمتن بعد عودتهن بوقت قصير. قصد فورت واين، انها في ولاية انديانا، لم يجد ما يمكن أن يذكّر بلبنانيين او بسوريين جاؤوا الى هنا في بداية القرن. انها مدينة صغيرة شوارعها عريضة جداً وفيها نوع من الشجر العملاق لم يشاهده موسى من قبل. توقف في محطة للوقود ثم دخل احد المخازن الكبيرة لكنه لم يعرف عما يسأل. فورت واين لا تشبه مريانا النبّارة... ثم قرأ عن المهاجرين العرب الاوائل الى اميركا وشقائهم في الوصول وفي التجارة كتاباً مزيناً بالصور الفوتوغرافية وفيه ذكر لمدينة فورت واين، وكيف كانت مركز تجمع للباعة المتجولين بادارة رجل من راشيا الوادي يدعى سالم ابو العينين. صار موسى يرى جدته في كل مكان، في مرسيليا في قبضة السماسرة يبتزّون المسافرين السذّج او في الوصول الى أيليس أيلند في نيويورك، هل كانت تبيع ذخائر من عود الصليب او تراباً تقول انها حملته معها من القدس، ام أن كشتها من النوع الذي يصفه الكتاب مليئة بدبابيس الشعر والأزرار وأقراط الآذان والأساور؟ بعدما قرأ الكتاب وتمعّن في صوره لم يعد متأكداً أن ما أخبرته أياه أمه عن جدته مريانا صحيح، أو بالاحرى أن تلك التفاصيل وجدها تنطبق عل جميع المهاجرين فضاعت فكرة جدته وسط

آلاف من المصائر المتشابهة، ولم يبق منها أكيداً سوى صورتها الفوتوغرافية الى جانب صندوق السفر... واسمها الرنان مريانا النبّارة.

هكذا هو موسى. انفعل قليلاً وصار يقول إن حياته كلها كانت ولا تزال حاضرة في نفسه، حياته وحياة أهله كسلسلة مترابطة، وأنه لا يمكنه أن يبدأ من جديد. ولتأكيد أقواله فتح ذراعيه عريضاً في اتجاه الجبال.

- يا ريّا، انا لم أغادر هذه البلاد يوماً.

قال إنه يستيقظ كل يوم ويطلع الى تلة الذهب ليمتلئ من الضوء ويشبع من الألوان، وانه في نيويورك لا ينهض باكراً وتمر عليه احياناً أيام بأكملها لا يخرج فيها من شقته، وصار يشرح لها كيف تتغير ألوان الجبال، ويدلها اليها ويعجب كيف انها لا تنتبه أنها تكون رمادية عندما يكون الضوء ضعيفا وتصير عند الظهر زرقاء، ومن ثم بنفسجية، لتتحول حمراء عند الغروب. لم تنتبه ريّا يوماً أن الجبال تتغير ألوانها، ستراقبها من الآن وصاعداً، وكلما نظرت اليها ستتذكر موسى عندما قال انه بدون هذا الضوء وهذه الألوان هو لا يساوي الكثير. وعاد الى الحديث عن الناس وكيف يعيشون كل يوم بيومه، يرمون وراء ظهورهم كما يقول ويمشون.

موسى يحكي وريّا لا تستطيع النظر اليه. قال كل ما حرم نفسه من قوله طوال الاشهر الثلاثة، قال أيضاً ما كانت تخشى كل يوم أن يقوله. تدخّن وتصغي، لا تجرؤ على مقاطعته او على مسايرته ولو بكلمة او بأيماءة من رأسها. تبخّرت من رأسها جميع الاسئلة التي كانت تودّ طرحها ذات يوم عليه. كلماته تصفعها، تعصر قلبها. هذا ليس موسى الذي كان جزءاً من الايام وبهجتها، تراه وهي صغيرة يصل الى الدوّار متكعنشاً بفريد الأعمى وهما يضحكان. يمر على بيت فريد في طريقه الى الدوّار، ويصطحبه فيوفّر على ابنته ايصاله وانتظاره لارجاعه. فريد يتأبط عوده بيد وموسى بيد ويحكي طوال الطريق قصصاً عن النساء، على ما كانت تظن ريّا، وموسى غاش من الضحك. موسى وحده كان يتعامل مع فريد كأنه رجل مثل باقي الرجال، يتحدّاه، يعارضه وأحياناً يُسكته بينما باقي الناس كانوا كأنهم يتحمّلونه لانه أعمى. حتى ابنته عندما ترافقه كانت تتسلى في المطبخ وتتركه، يختار طاولة بعيدة، يضع عوده عليها ويجلس وغالباً ما يجلس معه هراتش المصوّر.

ينتظر فريد أن يناديه الزبائن، خصوصاً هؤلاء الذين يكون العرق قد لعب برأسهم. لم يكن يجلس مع والدها، حتى أنهما لم يكونا يتبادلان التحية. ما إن يحضر موسى حتى يجد فريد رفيقا يجالسه حيناً ويمسكه مجدداً من يده ليرجعه الى البيت وما إن يغادرا المطعم ويمرّا فوق الجسر حتى يكون فريد قد بدأ يحكي وموسى بدأ يضحك فيظل رجع قهقهته المجلجلة يصل الى المطعم طويلاً بعد أن يتوغّلا في الطريق المعتمة. لما سافر موسى بقي فريد يذكره في مواويله، أو يرفع كأسه ويطلب من الزبائن وإن كانوا لا يعرفون موسى أن يشربوا نخب شخص عزيز على قلبه، سافر الى اميركا ويقول بصوت عال:

– هذا كأس ابو ليلى!

يسمّيه ابو ليلى، وهذا سرّ من الاسرار المضحكة التي كانا يتبادلانها.

هذا هو موسى الذي تعرفه ربّا منذ فتحت عينيها على الدنيا وليس الجالس أمامها راجياً مهزوماً. صورتهم معه في الحديقة العامة في طرابلس بقيت في الغرفة وقتاً طويلاً. شعرها جديلتان طويلتان، كانت لا تزال تشبه اللعبة الشقراء التي تحكي اذا شدّت على بطنها والتي تقول أمها إنها اشترتها قبل أن تولد ربّا بأسبوع، فجاءت على شكلها وبطولها تقريباً. أخبار موسى ظلت تتردد في بيتهم طويلاً بعد سفره، ليس من القليل الذي كتبه لهم على ظهر البطاقات البريدية بل من أخبار العائدين من أميركا أيضاً. هكذا عرفوا مثلا أن أرملة ثرية من اصل لبناني عرضت عليه في بوسطن مبلغاً كبيراً من المال ليرسمها فرفض، وأنه يرسم طوال الوقت خطوطاً وألواناً، وأن الذين يشترون منه قلة قليلة لكنه يثابر. سمعت ربّا مرة رجلاً يخبر والدها أن صاحبك حارق قلوب النساء في أميركا

وسمعت الكثير عن غرامياته حتى التقى بتلك المرأة التي تزوجها وانقطعت بعدها رسائله وأخباره عن الدوّار.

يوم عاد لم تعرفه لأنها لم تكن تنتظره. كانت تدرّس رامي في كتاب القراءة العربية، صعد محمود الى الطابق العلوي وطلب اليها ان تنزل لأن رجلاً غريباً قادماً في سيارة تاكسي يسأل عنها. هو أيضاً لم يعرفها من النظرة الأولى. كان واقفاً عند الجسر الى جانب سيارة صفراء اللون، من تاكسيات المطار. لم ينزل. خرجت من الباب واقتربت قليلاً، دلّها محمود عليه، محمود لا يعرفه. لم يبدأ العمل في الدوّار إلا في أواخر الستينات، كان قبلها اركلجياً عند مصطفى بك العبود. كان موسى ينظر حوله كأنه يتأكد من بقاء الأشياء في أماكنها، ولما رأته كان يتطلع الى الأعلى، الى شجر الدلب، في وضع يشبه السائح الناظر الى العمارات العالية، نادته بلهفة من سيتلقى خبراً مفاجئاً. التفت نحوها وقال بصوت عال:

- انا موسى بشارة آت من بروكلين بالطيّارة...

صرخت به:

- عمّو موسى؟!

فعرفها وأول ما سألها:

- ماذا عملت بشعرك يا ريّا؟

فأجابته أنها خبأته في علبة في الخزانة. ضحكا. بقي واقفاً فوق الجسر، رفع يده في العالي وراح يطوّح بها ويقول كأنه أمام حشد غفير:

مناثر شقّت الظلماء وانبلجت
في كل ناحية عن فجر عرفان
خلعتَ منهم على لبنان نضرته
وزنتَ هام الربى منها بتيجان

إنها أشعار صديقه فؤاد. انتبهت من أول كلام قاله إن لهجته قديمة، فيها نبرة لم تعد موجودة. دمعت عيناه ونزل. لم يسألها عن والديها، لم يشأ، سألها عن حفيظة، المرأة التي كانت تعمل عندهم في المطبخ قبل سفره. أول وصوله حاولا لحظة العودة الى ما كانا عليه، هي ريّا ابنة فؤاد وهند، وهو عمو موسى يأتي بالعنب المرواح في أكياس الورق السمراء ويطعمها. لم ينجحا. بينهما فراغ طويل.

أمضى موسى ثلاثة أشهر في الدوّار وهي تراه في الماضي. لم يتغير كثيراً، مشيته، طريقة جلوسه، ألوان ثيابه وتسريحة شعره. والدوّار لم يتغير، من بعد الطوفة الى اليوم لم يتغير. الطاحون كما هو أبدي سرمدي، يأتي أناس ويصورونه، الجسر، أشجار الدلب، لون الحيطان الأمغر بقي على حاله. الطاولات أعادوا طليها مرة فقط. وحدها واجهة دير مار سمعان جددها الرهبان، قشطوا عن حجارها واستبدلوا شبابيك الخشب بنوافذ من الألمنيوم والزجاج. طوال إقامة موسى عندها كانت تطمئن لفكرة أن الماضي، عندما كانت تأتي الى الدوّار مرة في الشهر ولعطلة الصيف بأكملها، ليس سحيقاً، وأنه يكفي القليل أحياناً لكي تشمّ رائحته من جديد.

ها هي جالسة أمامه، هو يحكي وهي تدخّن. دخنت علبة المارلبورو بأكملها. جاءت سعيدة بركوة القهوة الثانية وتفرست في موسى، وقالت لريّا فيما بعد أنها اعتقدت نفسها أمام شخص آخر لأنها لم تعرفه منفعلاً هكذا وجزمت أنه غاضب من أقربائه، وذلك على طريقتها في محاولة معرفة الأشياء، أي أنها لا تسأل بل تبدي رأياً حاسماً وتنتظر الجواب. لم تساعدها ريّا في ذلك وطلبت منها الاهتمام بطلبات الزبائن خصوصاً أن محموداً اشتكى من تباطئها. ذكّرتها اليوم، من لحظة وصولها في الصباح، أن لا فائدة ترجى من الأقارب، طالما أن أبناء عمه كادوا لا يقفون للتعزية أمام باب الكنيسة. تتوسع سعيدة في موضوع الأقارب لأنها تتعذب كثيراً مع أشقاء زوجها بعد وفاته. ثم أضافت فجأة كأنها خائفة مما ستقوله:

- ليسترنا الله!

تكره ريّا التلميح، وسعيدة خبيرة باللف والدوران، قليلة الكلام لكن ما تقوله مليء بالمهاوي، وإذا أحرجت تتهرّب.

- لا، لا سمعت ولا شفت.

ربّما تكره تهرّبها أكثر من تلميحاتها، تشعر عندما تتكلم معها هكذا أن خطراً ما يدور حولها، على بعد متر واحد منها، وأنه سينقضّ عليها في أية لحظة.

قال كل شيء، قال إنه فقد أمله في الناس باكراً، بالرجال في لبنان وبالنساء في الولايات المتحدة، وأنه أول ما طاوعته الريشة بعد دراسته في الأكاديمية وشعر أنه صار قادراً على تصوير ما يحلو له، رغب كثيراً في رسم الوجوه، وكان كلما التقى في نزهاته برعيان أو بدويات نقل ملامحهم بالقلم الرصاص، وحاول القبض على نظراتهم بنوع خاص ليكمل رسمهم وتلوينهم في البيت. كذلك كان يحب وجوه الرهبان، ولما طلبوا منه رسم صور القديسين في بعض كنائس القرى المجاورة، لم يتخيل مار الياس الحيّ او مار سابا العجائبي إلا على هيئة رجال أقرب الى الأرض. فاختار في كنيسة عبدين لمار الياس الذي قاد عربته النارية وصعد بها إلى السماء، هيئة رجل فلاح متورد الوجه وقوي البنية كان يحرث لهم كل سنة محوّطة الزيتون. أخبرها كيف كان يزورهم في الموسم، يلبس شروالاً ملوناً أيام الآحاد وأسود أيام العمل، تفوح منه رائحة التراب، يجلس ويلف سيجارة بأصابعه، يحكي فيخيّل الى السامع أن الدنيا كلها هناء واستقامة ونخوة. حتى قصده موسى مرة الى بيته، أرسله والده، وقد أراد ان يدربه على الاهتمام بالأرض، ليطلب من أبو سعيد الانتهاء بسرعة من زيتون الحريق لأن الطقس مائل إلى الشتاء من جديد. قبل وصوله إلى بيت الفلاح سمع صراخ امرأة، أمه، احتال عليها كي تكتب له البيت وكل ما تملك باسمه ورماها في خربة مسقوفة بدفّ من التوتياء، وقد أصبحت شبه

عاجزة عن المسير، لا يأخذها إلى الطبيب ويكاد لا يُطعمها. كانت تجرّ نفسها إلى باب الغرفة، تقف بصعوبة على رجليها، تخرج ثديها الايمن وتمسكه بيدها وتدعو على ابنها، تطلب له أن يزهر ولا يعقد. أخبرها هذه القصة وأضاف أن ما يحزنه هو أن مار الياس الحيّ في كنيسة عبدين لا يزال حتى اليوم على هيئة أبو سعيد الذي ترك أمه على عذابها حتى وجدوها ذات يوم ميتة واقفة، مستندة الى السرير، فحلف يميناً أنه لن يرسم اناساً ولا وجوها بعد الآن، وصار يصوّر الأبواب والجبال، ولما استقر في أميركا راح يختصر أكثر فأكثر، ولم يحفظ من هذه البلاد في لوحاته إلا المساحات والألوان. وأنه لما سافر اعتقد انه لن يعود أبداً الى لبنان وقد سجّل اسمه على حائط دير مار سمعان مثله مثل باقي المهاجرين الى البرازيل او المكسيك، وعندما أبحر من مرفأ بيروت كان الطقس صافياً والبحر هادئاً فبقي واقفاً على سطح الباخرة يتخيل جدته مريانا وينظر الى الشاطئ يبتعد، حتى غابت جبال لبنان خلف زرقة البحر. هذه هي الصورة الأخيرة التي حملها معه، وقد رسم في أميركا عشرات اللوحات أسماهن جميعاً مديترانيان بلو وأعطى لكل واحدة منها رقماً. وقد اشترى متحف المتروبوليتن لوحة منهن عُلّقت فترة في القاعة الرئيسية للمعرض، لكن القيمين عليه عندما اكتشفوا أنه عربي أنزلوا لوحته الى قاعة المحفوظات المقفلة في وجه الزوار. وقال إنه لم يرجع الى لبنان ليلتقي بالناس وخصوصاً أن القلة الذين يتشوّق لرؤيتهم وعددهم أقل من عدد أصابع اليد الواحدة قد استراحوا.

رجع لكي يجدد إحساسه بالأشياء والأماكن، لكي يعرف إذا نضبت نفسه أم أنه لا يزال قادراً على استرجاع مشاعر الماضي. انه متأكد من أن الأحاسيس القديمة لا بد أن تعود هي

نفسها، وبقوة، عندما ينظر من جديد في الحي الذي كبر فيه الى شجرة الكينا التي كان الأولاد يحفرون أسماءهم وأسماء حبيباتهم عليها، الى شباك المطبخ والدرج الصغير والطريق... وأن هذه المشاعر شخصية لا يتشاطرها الأخوة ولا الأتراب. انها فريدة لا يسترجعها الا صاحبها وان اضمحلالها هو الموت الحقيقي. يحب الدوّار. كان قلبه يفتح كلما أطل ورأى النساء يشمّسن البرغل على سطح الطاحون، وأبونا سعد لابساً قبعة الفلّين يرمي خبزاً لطيور الاوزّ والبطّ. وقال إنه يتذكر الدوّار يوم كان صغيراً يمر مع رفاقه فوق الجسر القديم ويتوقفون ليتفرجوا على الضباط الفرنسيين الذين كانوا يأتون بعشيقاتهم الى هنا، وكيف صار في ما بعد يتعرّف الى الإنكليز، موظفي الشركة، مستر مالوري لاعب البريدج الذي لا يقهر، ومستر بركنز صاحب الشاربين الرفيعين الواقفين، وكيف علّموه الرقص وعلّم هو النساء شرب النارجيلة ولعب طاولة الزهر. كانوا يرقصون الشارلستون على أنغام الأوركسترا، أشار بيده الى حيث كانت تجلس الأوركسترا، الى جانب المدخل. حفلاتهم تنتهي عند طلوع الضوء عند أول دقة جرس في كنيسة دير مار سمعان، تشرب نساؤهم الويسكي اكثر من الرجال. لكن الإنكليز قساة. عرفوا أن اللبنانيين يحبذون الانتداب الفرنسي وقبل أن ينسحبوا جمعوا بغال الجيش كلها، وبدل أن يهبوها الى الأهالي أطلقوا على رؤوسها النار. لذلك يسمّون السهلة الى جانب ملعب كرة القدم مقتلة الخيل.

كل هذا ذكريات، فهو يحب الدوّار لأن فيه كما قال سحراً خفياً، زواجاً بين الشجر والماء والنور والظلال، وأول ما ترجّل من السيارة بعد غيبة ثلاثين عاماً، أحسّ أنه دخل الى كاتدرائية عالية وفسيحة يمكنه الجلوس فيها بأمان وهدوء.

مساء الأحد تفرّج قليلاً على التلفزيون، تعشى وصعد باكراً الى غرفته، قبل الساعة التاسعة. ربّا أيضاً كان عليها أن تنوّم رامي باكراً، تسمح له مساء الجمعة ومساء السبت بالسهر، فيعذّبها الأحد قبل أن ينام. يشترط أن تحمله الى فوق حملاً أو أن تعطيه مالاً ليشتري في الغد صور لاعبي كرة القدم يلصقها على دفتره. عند العشاء، ليلة الأحد، كانت هنالك طاولة واحدة، الرجل البدين الذي يعمل في تجارة السجائر المهربة يدعو زوجته وابنتيه الى العشاء مرة في الأسبوع ويطلب كل أنواع المازات والمشاوي، يصلون في السيارة الأميركية، يقودها الأب ويعودون بقيادة الأم لأن الأب يكون قد أفرط في الشراب. طلبت من محمود أن يحاسبهم لأنها تشعر بالتعب وتعرف أن رامي لن يغفو بسرعة. باب غرفة موسى كان مقفلا ولم تسمع حراكه. الساعة الثانية الا ربعاً بعد منتصف الليل استيقظت على رنين التلفون، سمعت صوته وسط السكون، من فوق، من غرفتها. في النهار لا تسمعه، لا يرنّ إلا نادراً، ولا تعرف ماذا أصابه تلك الليلة. حاولت في المرة الأولى أن

تنهض كي تنزل وتجيب، توقف قبل أن تصل الى باب الغرفة. رنّ مرة ثانية وثالثة. في النهاية جذبت الغطاء فوق أذنها ونامت.

استيقظت كالعادة ثم أيقظت رامي. موسى خرج في نزهته الصباحية. لم تسمعه ينزل الدرج او يدخل الحمّام، لا تسمعه اثناء نومها عميقا. كان باب غرفته مغلقاً. حلق ذقنه وعطّر وجهه. في كل صباح يبقى في الحمام أثر خفيف لرائحة العطر الذي يستعمله موسى، كما أنه بعد أن يحلق ذقنه يضع الفرشاة المبلولة على طرف المغسلة، يوقفها على مسكتها كي تنشف. انتظرت مرور الأوتوكار مع رامي وأوصت السائق أن يجلسه قريباً منه لأن الأولاد يتدافعون من حوله ويوقعونه أحياناً. ثم صعدت مجدداً الى الغرفة لتأتي بجزدانها وببعض المال. عليها المرور بالخياطة وبطبيب الأسنان الذي يستقبلها من دون موعد، بين مريضين. سألتها الخياطة في هذا اليوم عن موسى وأرادت أن تعرف كيف سيتصرف بأملاكه وهل كان أقرباؤه يزورونه.

رجعت قبل الظهر بقليل، سألت سعيدة عنه فقالت إنها لم تره، وصلت منذ ساعة تقريبا ولم تلتق أحداً. وصل محمود بعدما عرّج على السوق ليتبضّع لوازم المطعم. هو أيضاً لم يلتق موسى. صعدت الى غرفتها ودخلت الحمام، رائحة العطر الخفيفة لا تزال فيه وفرشاة الحلاقة واقفة على طرف المغسلة. ولما خرجت من الحمّام ومرّت أمام باب غرفته نادت:

– موسى، عمّو موسى!

على أمل ان يكون في الداخل ويسمعها. انهمكت في ترتيب الغرفة ومن ثم التحضير في المطبخ. زبائن يوم الاثنين نادرون لكن عليهم أن يكونوا دوماً مستعدين، هذه معيشتهم

في الدوّار.

لما وصل الدركي في سيارة الجيب كان محمود واقفا على كرسي يقدّم ساعة المطبخ بحسب التوقيت الصيفي الذي بدأ العمل به من صباح يوم الاثنين، وقد نقل عقرب الدقائق من الحادية عشرة والربع الى الثانية عشرة والربع. تذكر ريّا أن محموداً قال متهكماً:

- جاءت الدولة.

ونزل ليستقبل الدركي. تعوّدوا على رجال المخفر فهم يحاولون اما التهرب من الدفع واما المكاسرة. يطلب الضابط أحياناً غداءً الى مكتبه، يرسل من يأخذه ولا يرسل معه الثمن على أمل أن ينسوا مطالبته أو أن يستحوا منه. كأن لهم مع الدوّار ديناً عليه تسديده الى ما لا نهاية.

- انظر ماذا يريد يا محمود، لكننا نريد رؤية أموالهم.

رجع محمود وقال ان الدركي يريد صاحبة المطعم. كان يحمل بيده ورقة صغيرة لا شك أن عليها اسم موسى، لأنه لما سأل ريّا اذا كانت قريبة من المدعو موسى حليم بشارة قرأ الاسم في الورقة. أجابته ان لا قرابة بينهما لكنه مقيم عندها. اعتقدت ان الامر متعلق بمعاملات أجراها موسى في السرايا في الأيام الأخيرة. لكنها عندما تطلعت الى وجه الدركي الشاب لتفهم منه ما يريد رأت في عينيه نظرة تعرفها جيداً.

أغمضت عينيها وأمسكت وجهها بيديها، فقال ان موسى في المستشفى، وان عليها الحضور في الحال.

- ماذا جرى؟

حاول التهرب من الإجابة وأعاد عليها السؤال عن قرابتها مع موسى، فأعادت عليه الجواب بالنفي لتشجعه على الإفصاح، فأخبرها عند ذلك أن رجلاً وابنه أبلغا الى المخفر

وجود غريق في النهر وأن الصبي كان متأثراً ملهوفاً. اتصل الضابط بالدفاع المدني وتمّ انتشال الجثة، وقد تعرف اليها أشخاص من البلدة. أقفلت فمها بيدها كي لا تصرخ وتلفتت حولها لا تدري ماذا تقول ولا ماذا تفعل. هرعت سعيدة واقترب محمود، فأخبرهما الدركي بما حصل فولولت سعيدة وركضت في اتجاه المطبخ. سعيدة تعرف ما يجب عمله في هذه الحالات، فهمت أنهم سيقفلون المطعم فباشرت ذلك.
عندما حضرت الى المحفل في اليوم التالي طمأنت ريّا أنها وضعت اللحم المنعّم والدجاج في الثلاجة. بدأ محمود بإدخال الكراسي والطاولات وبقيت ريّا واقفة أمام العسكري المسكين وهو أيضاً لا يدري ما يفعل. عرض عليها أن يوصلها معه الى المستشفى فشكرته، وقالت إنها تفضل الذهاب بسيارتها. وقفت ساهمة. انتبهت الى محمود: كان كلما اقترب من الدرابزين ليحمل طاولة ويدخل بها يقف وقتاً قصيراً ويتأمل الماء وهو يهز رأسه. قال الدركي بصوت عال متوجهاً الى الجميع:

- العوض بسلامتكم.

مشى في اتجاه سيارة الجيب وقبل أن يجلس خلف المقود التفت الى ريّا وسألها:

- هل صحيح أنه رسام مشهور؟

هزت رأسها بالايجاب واستدارت لتدخل الى المطعم لكنها رجعت الى الدركي وسألته إذا كانوا قد ابلغوا أقاربه.

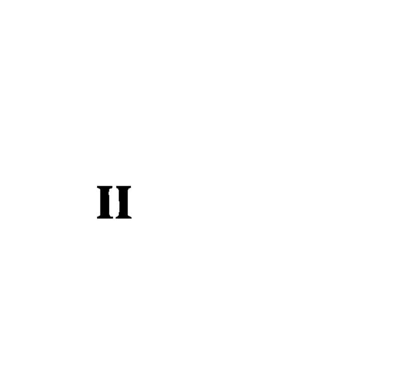
- أرسلني الضابط أولاً عند أبناء عمه وها انا قادم من عندهم... هم أرشدوني إليك.

بعدما نقل الكراسي والطاولات أمسك محمود بالدرابزين بيديه الاثنتين وأرجع رجلاً الى الوراء وهو يتفرّس في النهر.

سألها إذا كان موسى لا يجيد السباحة. لا تعرف. صعدت الى غرفتها وأعدّت حقيبة صغيرة لرامي وضعت فيها البيجاما وثياباً داخلية وتذكرت تمثال بيتهوفن وهي تقفلها. رجعت وطلبت من محمود ان يمرّ بالمدرسة بسرعة وأن يطلب من سائق الاوتوكار إنزال رامي عند ابنة خالها كلارا وأن يرجع من ثم ليوافيها الى المستشفى. طلبت منه أيضاً أن يوصل سعيدة الى بيتها وهي تتكفل تسليم حقيبة ثياب رامي الى كلارا لأنها تسكن في الحي نفسه. عرضت سعيدة عليها مرافقتها وحلفت أنها لن تتركها في هذه الحال. قبل أن ينطلقا تنحت ريّا بمحمود جانبا وطلبت منه أن يُنزل سعيدة في بيتها وأن لا يعيدها معه الى المستشفى ولو أصرت على ذلك. في وجه سعيدة كلام قوي لم يكن في استطاعة ريّا تحمله.

بقيت وحدها. أشعة الشمس تتلألأ على أوراق شجر الدلب. أحست بالخدر في رأسها. تعودت عليه ولو انه كان هذه المرة قويا فخافت أن تقع. اقتربت من شجرة الدلب، اختبأت وراء جذعها عن عيون المارة، وراحت تنادي أمها بصوت عال، وتبكي.

II



تعرف ريّا أن لا مفر من تعبة الرأس، فهي كانت تتوقع مثلاً هجوماً من سلوى الفكحاء وشقيقها روميو على الدوّار للمطالبة بأغراض موسى التي بقيت في غرفته. تنتظر وصولهما بين يوم وآخر، وقد استعدت للمواجهة. لن تدعهما يلمسان شيئاً. هي أيضاً استشارت محامياً، انه بيتها ولا يحق لهما دخوله، والغرفة التي فيها أغراضه غرفة أبيها وامها. ليبلّطوا البحر! انهم يطاولونها بألسنتهم منذ عودته وهي ساكتة. الله لا يشبعهم! يقولون هنا وهناك انها استولت على خاتمه وسلساله الذهبي وساعته وأنها باعتهم كلهم. يدّعون أن إدارة المستشفى سلّمتها إياهم مع باقي أغراضه وأن الساعة والخاتم والسلسال قد ظهروا عند أحد جوهرجية سوق الصاغة!

هذه أخبار سعيدة. ولها طريقتها، فحتى وهي تنقل عنهم اتهامهم لريّا بأنها استغلت موته لاختلاس المال الذي جاء به من أميركا، كانت سعيدة كأنها تسأل ريّا عن هذا المال ومصيره. لو تستطيع أن تصرفها وترتاح منها ومن أخبارها.

من أين تأتي بكل هذه الأقاويل؟ تمضي النهار واقفة هنا في الدوّار، في وجه ريّا، ويوم تبكّر في الفكّة يوصلها محمود الى بيتها في العاشرة ليلاً لتعود في الصباح. من يصمّد لها الأخبار؟ نفَسها جيد على الأكل وريّا لن تهتدي الى امرأة غيرها تحسن تحضير الكبّة. كل سرّها في القرص الكبير والرقيق وحشوته من الصنوبر والشحم. هنالك زبائن يأتون خصوصاً من أجل لقمتها. صيتها حسن منذ الايام التي كانت تدق فيها اللحمة في الجرن، لسنوات بعد انتشار المولينكس، وكان جرن الحجر الكبير موضوعاً خارج باب المطبخ حيث يمكن الزبائن رؤيتها وهي تتغاوى بزنديها الابيضين، فيأخذون لها صوراً تذكارية وهي تشلّش اللحمة وتعركها.

سلوى وروميو! كم مرة تخيلت وصولهما في اليومين الماضيين. لن تتمكن سلوى من النزول وحدها وستضطر الى الاتكاء على شقيقها، عرجاء وفاجرة، يا رب بلا جبر! لم تأت الى بيت الأخوية ولا الى الكنيسة. رأتها ريّا في منامها ليلة أمس، هي تقدح شررا مثل الساحرات، جسمها يهبط الى الجهة اليمنى ثم يعلو عند كل خطوة تخطوها، وهو أبله يمسك بها كي لا تقع. ينزلان من جهة الجسر في اتجاه المطعم وريّا تتراجع أمامهما. اختفى من خلفها السياج الذي يحدّ أرضهم واختفى النهر وبستان الليمون وظهرت حصيدة قمح واسعة تبدأ ولا تنتهي، وريّا لا تستطيع الهرب لأن أرض الحصيدة رخوة لزجة، إذا وضعت رجلاً فيها التصقت. فتقترب منها سلوى وتظهر عيناها مكحلتين تتوعدانها، فتستفيق ريّا مقطوعة النفس مذعورة. قد تكون رأت هذا المنام أكثر من مرة، لا يمكنها أن تتذكر، فهي أدركت من وقت قصير فقط أنها كانت طوال سنوات ترى الحلم نفسه ولا تتذكّره في اليقظة.

انها في مسرح المدرسة، هناك في القنطاري، واقفة وراء الستارة السوداء، تقترب لحظة دخولها الى الخشبة، لكنها نسيت دورها تماماً ولا تعرف كيف تتدبر، عالقة في الكواليس لا أحد يمكنه إنقاذها. رأت هذا الحلم عشرات المرات وربما لا تزال تراه حتى اليوم. اشتركت مرتين في مسرحيات المدرسة، مرة في دور صغير لا تتفوّه فيه بأي كلمة، خادمة في منزل عائلة ثرية تمرّ مرور الكرام. عنوان المسرحية **قبعة القش الإيطالية** وقد اختارها الأستاذ ربما بسبب عنوانها الذي يذكّر باسم المدرسة. مسرحيات نهاية السنة كانت تقدم بالفرنسية لكي يفهمها أهالي التلميذات. المرة الثانية صفقوا لها في دور انتيغون وحضرت أمها خصيصاً من الدوّار. هنأها مسيو سوفاجو وقال لأمها إنها ممثلة بارعة. الأرجح أن ما يحدث معها في المنام هو اختلاط لدور الأميرة اليونانية هذا مع دور الخادمة، وكأنها تصعد الى المسرح معتقدة أنها ستؤدي الدور الصامت فإذا المطلوب منها القيام بالدور الآخر، وتعلق.

لقد زالت المدرسة الإيطالية من الوجود، جرفوها في الصيف الماضي، صار الحي سهلاً. أخذت رامي معها، وحدهما في السيارة. منعها الجيش من الصعود من منطقة المرفأ فاستدارت من جهة الخندق الغميق. استدلت الى الحي لأن السرايا الكبيرة لا تزال واقفة، انهم يرممونها. أوقفت السيارة وتركت المحرك يعمل. أشارت بيدها الى جانب الطريق وقالت لرامي:

- هنا كانت مدرستي، هنا كنت أتعلّم.

سألها رامي:

- أين؟

فدلّت مجدداً في الفراغ:

- هنا.

ضحك معتقداً أنها تمازحه وأصر على رؤية المدرسة. مر بائع غزل البنات على دراجة فالتهى به.

طمأنها المحامي أنهم لا يستطيعون دخول بيتها الا باذن من المدعي العام، وهم ليسوا في كل حال ورثة موسى بشارة، انهم مجرد أبناء عمه ولا حقّ لهم في أملاكه طالما له أخت وأبناء أخت أحياء يرزقون في كاليفورنيا. لهم أمل وحيد في الوصية، فلينتظروا الكشف عنها. سعيدة وصلها خبر الوصية أيضاً ونقلته الى ريّا، انها لا تترك شيئاً في ذمتها. هذه المرة سعيدة تأخرت، ريّا كانت عارفة بالوصية، أخبرها دانيال يوم الاثنين، أول من أمس. سعيدة تأخرت يوماً واحداً. صباح أمس بينما كانت ترتّب الصحون وريّا تغلي القهوة على الغاز رمت على عادتها سؤالاً خاطفاً:

- لماذا كان يذهب موسى لعند كاتب العدل؟

حرمتها ريّا لذة التمتع بالسر والكشف عنه بالتقسيط ففاجأتها بالجواب:

- سيقرأ كاتب العدل الوصية يوم السبت المقبل، عندها تعرفين.

وحملت ركوة القهوة والفنجان ومشت الى الخارج.

التقت دانيال في السوق وهي تهمّ بالصعود الى سيارتها، لا تعرف اذا كان يجب، في حالها، الاستمرار في ارتداء الاسود. لبست فستاناً رمادياً منقطاً بالأبيض، رأت فيه حلاً وسطاً. ناداها دانيال من بعيد، التفت المارة لصوته. انه فعلاً قصير القامة عندما يقف الى جانبها. تخاف قصيري القامة ولا تعرف كيف قبلت الركوب معه ومرافقته في تلك النزهة. قال إنه كان ينوي في اليومين الماضيين زيارتها في الدوّار، لكن أشغالاً طرأت عليه حالت دون ذلك. السيارة مليئة برائحة صنوبر اصطناعية. يقرّب مقعده، ويميل بجسمه على المقود حتى يكاد يلتصق به، كأنما يُعمل كامل أعضائه في القيادة. ذهب بها شمالاً في اتجاه البحر. تحدّثا أولاً عن موت موسى، ميتة بشعة لا يستحقها. دانيال يسرع كأنه يقصد وجهة ما. لا يعرف كيف يوفق بين القيادة والحديث الدائر داخل السيارة، فلم تكن سرعته هذه تلائم المشاعر الهادئة التي كانا يتبادلانها حول الحياة والموت.

أخبرها عن آخر موعد له مع موسى، الساعة العاشرة من

صباح يوم الأحد. موسى لم ينتظره. وافق قبل يومين على مرافقتهم في رحلتهم الى فم الميزاب. يصعدون كل سنة، عند الاكتمال الثاني للقمر في فصل الربيع، يأخذون معهم قبعات صوفية تغطي الوجه والاذنين وأكياساً للنوم يدخلون فيها ويتحزّمون اتقاءً للبرد القارس. يقصدون جورة اللزاب على علو ٢٨٠٠ متر. العام الماضي لم يتمكنوا من الوصول اليها لأن الثلج كان لا يزال كثيفاً. ينتظرون هبوط الظلام وطلوع القمر ليبدأوا بالبحث عن زهرة البرعة، يقال إنها تلمع لمعاناً قوياً وتختفي، يجب أن يكونوا كثراً لكي يستطيعوا الاهتداء إليها. كان الأب يوحنا يصعد في الماضي وحده، يلمحها ولا يتمكن من الوصول اليها. يقول الاب يوحنا إن حجر الفلسفة يُصنع من زهرة البرعة. هذه المرة أيضاً لم يوفّقوا، كانوا سبعة، ستة رجال وطالبة جامعية تتخصص في علم النفس. يصر الأب يوحنا على العدد سبعة ولما تخلّف موسى طلب من أحد أصدقائه مرافقتهم. عند بزوغ القمر من وراء القرنة السوداء صاروا يهرعون الى كل ما يلمع حولهم لكنهم لم يعثروا على زهرة البرعة. بقوا حتى طلوع الضوء. وساعة وصل الى المستشفى يوم الاثنين بعدما علم بالخبر لم يكن قد ذاق طعم النوم، وفي الليلة التالية لما سهروا عليه غفا ساعتين على الأكثر.

- لو رافقكم موسى لما ...

لم يجبها. ثابر على القيادة حتى وصل الى الميناء القديم، قرب القلعة.

أطفأ المحرّك واستدار نحو ريّا، وضع يده على يدها، كانت يده حارّة جداً.

- إنّ فنّ الاستاذ موسى بشاره يعبّر عن روح الهلال

الخصيب. في أميركا كان الجميع طامعين به ويضطهدونه. المرأة التي تزوجها حوّلت حياته جحيماً. ثلاث سنوات لم يرسم خلالها لوحة واحدة.

انفعل جداً.

- منذ ذلك الحين فقد قدرته على الرسم. انا أقنعته أنه لن يستعيد فنّه إلا إذا رجع يستوحي مناظر بلاده.

ما إن يفتح سيرة موسى حتى يبدأ التكلم بالفصحى، لهجته نفسها تتغيّر. يحكي ويشدّ على يدها ثم نقل يده فجأة ووضعها على ركبتها العارية. أصلحت جلستها وأدارت جسمها لجهة الباب فأمسكها بيدها من جديد. إنه لطيف لكنه قصير ويداه تعرقان كثيراً. اقترحت عليه الترجّل والتنزّه. تحب رائحة البحر، تحب رائحة السمك النيء. دانيال يصل الى كتفها وهما يمشيان في اتجاه القلعة، كيفما تكلم كان مثابراً على ملامستها. جاءت معه من دون أن تعرف ماذا يريد منها. تترك نفسها أحياناً، ترتخي، لتعود فتندم.

عاد يخبرها عن موسى وكيف فقد ثقته بالناس.

- يريدون جميعهم استغلاله، الاستفادة منه.

بدأ يكاتبه منذ سنتين وفي أول جواب لموسى سأله عن ريّا وعن الدوّار. أخبره دانيال أنها انفصلت عن زوجها وتقيم فوق المطعم وحدها مع ابنها. سألته وهي تبتسم:

- ماذا أخبرته عني وعن زوجي؟

أجاب بحياء:

- أخبرته ما يتناقله الناس.

أكملت وهي تتلذّذ سلفاً بالجواب:

- وماذا يقول الناس؟

هرب دانيال الى موضوع موسى مجدداً لكن استرسال ريّا

في السؤال عن زواجها شجعه فأمسك بيدها مرة ثانية الى أن كشف لها أخيراً عن سبب دعوته لها الى هذه النزهة:

يا ريّا، ان موسى قد ذكرك في وصيته، لا يمكنني الافصاح اكثر من ذلك. كاتب العدل يتريث حتى يتلقى جواباً من شقيقته في كاليفورنيا، وسيذيع الوصية يوم السبت او يوم الاثنين على أبعد تقدير فكوني مستعدة.

في طريق العودة ولما طلبت منه ريّا أن يسرع لكي تكون في الدوّار قبل وصول رامي من المدرسة ربط دانيال حزام الامان فازداد التصاقه بمقود السيارة وانصرافه اليها.

أعادها الى السوق، الى حيث أوقفت سيارتها، وبينما كانت تهم بالنزول سألها من جديد عن صورة أمها.

وصلت قبل وصول رامي. وجدت تمثال بيتهوفن واقفاً على إحدى طاولات المطبخ. ارتجفت.

- كيف وصل هذا التمثال الى هنا؟

- ابنة خالك كلارا أتت به وقالت أنك نسيته في بيتها ليلة نام عندها رامي.

هكذا سبقت ريّا سعيدة ولو لمرة واحدة. وبقيت سعيدة تأتيها بأخبار سلوى وروميو وأمس الثلثاء اقترحت عليها أن تسبقهم:

- اصعدي الى غرفة موسى واجمعي كل ما له قيمة. انت أحقّ من غيرك بها، لمن تتركينها؟

ماذا يتصوّرون أنه خلّف وراءه في هذه الغرفة؟ لا تنسى ريّا كيف تمكّن سائق التاكسي من حمل أغراضه من السيارة الى المطعم دفعة واحدة، حقيبتيّ ثياب ولفّة قماش وورق خفيفة فيها الرسوم التي جلبها معه من اميركا. يريدون ثيابه فليتفضلوا ويأخذوها! سمعوا ربما أن لوحاته تباع فلتأت سلوى الفكحاء وتتأمل هذه القماشات المبقحة بالالوان والخطوط. تعتقد ريّا أن موسى لم يكمل لوحة واحدة طوال اقامته في الدوّار. يرمي لوناً فيعمل عليه وقتاً قصيراً ثم كأنه يحار كيف يكمله او يضجر منه فيلفّ القماشة ويضعها جانباً. حتى صورة رامي لو بقي حياً يوم الاثنين لما استطاع اتمامها. تلك هي غرفة موسى. دخلت اليها مرتين فقط منذ وفاته، مرة

أرغمها على ذلك رامي ومرة في اليوم التالي كي ترتّبها. سحبت المفتاح من فوق حاجب الباب وصارت تضعه في جزدانها، لا تريد أن تدخلها سعيدة بحجة تنظيفها كما كانت تفعل طوال إقامة موسى...

لا تزال الرائحة فيها، لا بل أحست ربّا أنها صارت أقوى. رائحة جدها خليل عندما أسكنوه في الغرفة وسط بستان الليمون، كان ذلك أيام الثورة، قبل أن يأخذوها الى المدرسة في بيروت. تذهب الى جدها كل يوم بعد الغداء، ويوم بدأ استعمال الهاون وأقفلت مدرسة البلدة بعدما وقعت قذيفة فيها بجانب تمثال سيدة لورد من دون ان توقع أضراراً تذكر، صارت تمضي القسم الاكبر من النهار عنده. تفوح من حوله رائحة خاصة لن تشمّ مثلها في أي مكان آخر. واذ تذكرتها في ما بعد، دون ان تستعيدها كلياً، قالت في نفسها إنها رائحة الناس القريبين من الزرع والحيوانات. تطغى عليها نكهة جبنة الماعز الممزوجة بزيت الزيتون الجديد الحاد الطعم وعناصر أخرى مثل ورق الورد الذي كان جدها خليل يجففه في صحن يضعه على الطاولة التي يأكل عليها ما تأتيه به أمها الى غرفة البستان ظهراً ومساء. حتى رجع موسى ونزل هنا. بعد شهر على وصوله دخلت الى الغرفة فلم تصدق أنها تشمّ رائحة جدها خليل وبيت بستان الليمون والثورة. بعد اثنين وثلاثين عاماً. نظرت حولها فوجدت أوراق الورد الجوري منثورة على الكومودينا الصغيرة بين السريرين. من اين تأتي رائحة جبنة الماعز وزيت الزيتون؟موسى لا يجلب الاكل الى غرفته. كيف أعاد موسى بشارة تأليف هذه الرائحة بالذات بعد كل هذا الزمن؟ أم أنه أخذها معه وبقيت عالقة به طوال وجوده في نيويورك، في شوارع مليئة بالسيارات وناطحات السحاب،

وحيث تتخيل ريّا أن لا شجرة تنمو ولا وردة؟ انتبهت فجأة ان شباكيّ الغرفة مقفلان وأن الضوء يأتي فقط من الخلف، من الباب، مع أنها تتذكّر أن احدهما كان مفتوحاً عندما دخلتها مع رامي. تتذكّر ذلك بسبب الضوء، ولأنها افتكرت للحظة أن تغلق الشباك الخشبي خوفاً على تلك الرائحة من التبخر، لكنها عادت وقالت في نفسها إن الامر سيّان طالما الزجاج مقفل والعتمة لا تحفظ الرائحة أكثر من الضوء.

لم تستطع أن ترتّب شيئاً. أغلقت الباب وأرجعت المفتاح الى جزدانها. وقفت في الممرّ الصغير بين الغرفتين. كان باب غرفة والديها مفتوحاً دائماً. أبوها ينام لجهة النهر، على كتفه الايسر ووجهه صوب الحائط، وأمها في الجهة المقابلة. أبوها في سرير الحديد وأمها في سرير الفورميكا. يضع رأسه وينام. تستيقظ ريّا في الليل، في الثانية صباحاً. انتابها هذا الارق لأكثر من سنة. تتذكّر النوّاسة الحمراء المثبتة في الحائط، هنا بين الغرفتين. النوّاسة الحمراء، تنهدات أمها، وجسمها هي العالق بين النوم والليل. كانت تنهض الى الحمام، تفتح الباب وتغلقه محدثة ضجة كي تنتبه اليها أمها فتناديها:

- ريّا؟

تجيبها بصوت خافت وهي حافية القدمين، واقفة بين الغرفتين، كما هي واقفة الآن، فتدعوها اليها. تستلقي ريّا الى جانبها فتغمرها أمها بذراعيها وتسألها عن سبب أرقها، فتقول لها انها لا تعرف، فتعدها باصطحابها الى الطبيب في الغد، وتسكت. كانت أحياناً تبكي، تبكي بلطف نحو الخمس دقائق ثم تمسح دموعها بوجه المخدة وتطلب من ريّا العودة الى غرفتها. كانت ريّا تعود وتمتنع عن الحراك في سريرها لتوهم أمها إنها تمكّنت من النوم، لكنها تبقى أكثر من ساعة فاتحة

عينيها في هذا الضوء الاحمر الخافت، أبوها يغط في نوم ثابت يشبه الموت وأمها تتقلب وتتنهد حتى يغافل ريّا النوم بعد أن يراودها في عزّ أرقها احساس مخيف بأنها ستبقى مستيقظة على الدوام، الى ما لا نهاية.

لم تأت سلوى ولم يأت روميو وربما لم يفكرا أبداً في المجيء الى الدوّار. جاء هذا المحتال اللعين بنظراته الوقحة. كانت تزرع غاردينيا في حوّاش الزهر الى جهة المطبخ عندما جاء محمود ينذرها ان هنالك شخصاً في المطعم يطرح أسئلة حشرية ويدوّن الاجوبة على دفتر صغير. كلما اشتدت عليها الدنيا تقود سيارتها وتقصد المشتل، تشتري زهرة وتعود، تنكش، توسع لها وتنقلها مع تربتها، تسقيها، تلاطفها فتهدأ ويزول الخدر من رأسها لساعات. أخبرها محمود أنه لما وصل طلب فنجان يانسون فكاد محمود يقول له انهم لا يقدّمون اليانسون في الدوّار إلا للنساء الحبالى لو لم يخف من شنطة السمسونايت. كان يتطلع حوله كثيراً كأنه يتفحص المطعم والنهر والدير، ولما رجع اليه محمود باليانسون سأله هل يقدمون سمكاً. فأجابه محمود أن السمك والحنكليس انقطع من النهر لأن الناس لم يكتفوا برمي أصابع الديناميت لقتل أكبر عدد ممكن من الاسماك بل راحوا يستعملون الاسلاك المكهربة التي تبيد البذر الصغير أيضاً، وقد ضرب التيار أكثر

من صياد وقتله. نادى محمود بعد وقت لكي يستوضحه عن منسوب الماء وعن الارتفاع الاقصى الذي يبلغه النهر، فقال له محمود ان ذوبان الثلج هذه السنة كان سريعاً، وقد بلغت المياه ذروتها منذ اسبوعين وهي الآن تتدنى، وحاول محمود أن يدلّه الى الجبال البعيدة ليُريه كيف اختفى الثلج عنها فقاطعه وطلبِ منه ابلاغ صاحبة المطعم انه يودّ التحدث اليها قليلاً.

– انتبهي ماذا تقولين لأني اعتقد أنه من رجال التحرّي.

– ليس عندي ما أخبئه، يا محمود!

كان يفتح شنطة السمسونايت على الطاولة ويفتش بين اوراقه. انه ليس من الشرطة القضائية، تعرفهم. هو أيضاً لفظ اسمها كأنه قرأه في مكان ما.

– أنت السيدة ريّا فؤاد ابو خطار صاحبة هذا المطعم؟

سألها بعدما رفع جسمه قليلاً عن الكرسي من دون أن يقف، ثم عرّفها بنفسه:

– بسام عبد الملك.

لا يمرّ يوم إلا ويحمل معه خبراً. الحمد لله أنها ورثت شيئاً من بلادة أهل أبيها، بل من أبيها نفسه الذي يخيّل إليها أحياناً أنه ولد جالساً. في فصل الشتاء ومن الداخل خلف الباب الزجاجي، يشم رائحة الربيع في أواخر شهر شباط فيستعد للانتقال في آذار الى الخارج، الى جانب النهر، كوب العرق المضروب بالماء أمامه ويده على دفتره، وما إن يشحّ النهر وتتصاعد منه الرائحة بين الحين والآخر يروح يعترض على تقاعس البلدية وكيف تقبل أن يدير الناس مجاريرهم على أجمل نهر في لبنان. يضحك من منظر واحد، منظر سالم الشحاذ الذي كان يجوب الطرق طوال النهار يستجدي الفرنكات الجديدة الصفراء من المارة لا يقبل غيرها وعند

المغيب ينزل الى الدوّار، يقف على الجسر ويرمي غلّته في الماء وهو يقول:

- خبئها لي معك يا نهر الدوّار!

أمضى والدها العمر هكذا، مديراً ظهره للطريق وللدير، وفي وجهه النهر وأشجار الدلب وبستان الليمون، أفق أخضر مغلق وقريب.

ينظر اليها بوقاحة، يركز على رقبتها، على ولادة صدرها. فستانها مفتوح قليلاً وغزّال الحور يتساقط بكثرة، حطّ منه على كتفها.

- ما الامر؟

- انا موظف في الشركة الاميركية للتأمين وأود أن أطرح عليك بعض الاسئلة.

- حول أي موضوع؟

- حول موت السيد موسى بشارة. هنالك شأن يعنيك لا يمكن ان أوضحه اليوم والاسئلة التي سأطرحها عليك مهمة والأهم الاجابة عنها بصدق.

- ...

- يمكنك التمنع عن الاجابة لكني لا أنصحك بذلك.

طوال شهر تقريباً، بين نهاية الربيع وبداية الصيف، ترمي الحورات الثلاث ثلجاً متواصلاً من القطن الابيض، يغطّ على شعور الزبائن أو يقع في صحون التبولة أو حتى في كؤوس العرق. مدّ يده ليمسح لها كتفها العاري فأرجعت جسمها الى الوراء. الى الطاولة المقابلة هنالك رجل أصلع يلبس شورتاً أبيض وحذاءً رياضياً بدون جوارب، يشرب النبيذ الأحمر بصحبة امرأة لم تتبيّن ربّا عمرها ولا جمالها لأنها لا تلتفت أبداً الى الوراء.

بدأ كلامه بحزم.
- من المؤكّد، سيدة ريّا أن موسى بشارة لم يغرق في هذا النهر.
أراد التأثير عليها لكنها ارتاحت قليلاً لأن الكلام عن موسى يضع على الأقل حاجزاً بينها وبين هذا الرجل. إنه يعرّيها.
- قيل لي إن موسى طويل القامة معافى الجسم. أنظري. اذا وقف في النهر يبقى أكثر من نصفه ظاهراً.
قاطعته لتذكّره أن منسوب الماء كان... فأشاح بنظره عنها لأول مرة وصفن في النهر ثم عاد يتوغّل فيها بنظراته.
- لقد أخبرني الغارسون ذلك.
وأردف سائلاً:
- لماذا أنتم مصرّون على القول إنه مات غرقاً؟
انفعلت ريّا. كانت منزعجة لأنه يسجل أجوبتها على دفتره.
- وكيف تريدنا أن نقول إنه مات؟ اسأل الشاب الذي وجده في بركة الست دلال، انا لم أجرؤ على النظر اليه، محمود دخل الى غرفة الطوارئ في المستشفى ورآه كيف كان أزرق منتفخاً. وضعوه في التابوت مباشرة وأغلقوا عليه. ما كنا لنتحمل منظره مكشوفاً ونحن نسهر عليه.
امتلأت عينا ريّا بالدمع رغماً عنها. أحسّت أنها لن تتمكّن من ضبط نفسها فاستأذنته وصعدت الى الطابق العلوي متحاشية وهي تمرّ أمام المطبخ أن يقع نظر سعيدة عليها. مسحت عينيها، رتبت وجهها، قالت لنفسها شيئاً في المرآة، تأكدت من فتحة صدرها، ورجعت.
طلب منها أن تسرد عليه بالتفصيل ما حدث معها يوم

الاثنين منذ الصباح وحتى الساعة التي علمت فيها بموت موسى. يرمي الاسئلة على الوتيرة نفسها. أخبرته كل شيء، خروج موسى المبكر الى النزهة، نهوضها وإيقاظها رامي بصعوبة وسباقها المعتاد مع الوقت لالباسه ثيابه قبل وصول الأوتوكار، ذهابها بالسيارة الى الخياطة وبعدها الى طبيب الاسنان ورجوعها. يستمع ولا ينجدها ولو بإيماءة من رأسه أو حتى برفّة من جفن عينه. يبدو كأنه يدوّن من دون ان يفهم، واذا به يسألها:

– بعد ذهاب ابنك الى المدرسة بقيت وحدك هنا؟

– نعم.

– كم من الوقت؟

– لا أدري، عشر دقائق. صعدت الى غرفتي، حملت أغراضي، نزلت، أدرت محرك السيارة لم يدر من المرة الاولى، حاولت ثانية وثالثة حتى دار فانطلقت.

حاولت إغاظته فلم تنجح. يفكّر في أمر آخر بدون شك.

– هل تذكرين في أي ساعة غادرت المطعم؟

– يمرّ أوتوكار رامي في السابعة إلا ربعاً. غادرتُ في السابعة تقريباً.

فهمت ربّما أنه ينصب لها فخاً. لا تعرف ما هو الضرر الذي قد يلحق بها إذا توقفت عن الاجابة عن أسئلته الآن.

– الى أين يذهب في نزهته الصباحية؟

– الى تلة الذهب.

– هل يمكنه في هذه النزهة أن يلتقي النهر في مكان آخر؟

– لا أعرف.

– ...

– كلا.

سعيدة تختلس النظر اليهما، لن تحسن القيام بأي شيء في المطبخ قبل أن تعرف ماذا يجري. أما محمود فيكاد لا يلتفت عندما يمرّ الى جانبهما في طريقه لخدمة طاولة الرجل اللابس الشورت والمرأة صاحبة الشعر الاسود، لكنه كان من دون شك قلقاً.

أراد أن يعرف كيف تستقبل ريّا رجلاً في بيتها وهي وحدها مع ابنها الصغير. هذه المرّة كان التلميح في كلامه بينما بقيت نظراته فارغة.

- قل لي ماذا تريد أن تعرف لأخبرك؟

اعتذر منها.

- أرجو أن تسمحي لي القيام بعملي كما يجب فإن تقرير الطبيب الشرعي يتحدّث عن احتمال أن لا تكون الوفاة ناتجة فقط من الغرق. الامر جدّي كما ترين وجئت من بيروت الى هنا خصيصاً.

- إنه صديق أبي ومن عمر أبي، غاب ثلاثين عاماً، وفجأة رأيته واقفاً هناك، فوق الجسر، يسألني إذا كنت أرغب في استقباله.

- من كان يأتي لزيارته؟

- دانيال.

- من هو دانيال؟

أخبرته انه موظف في دائرة النفوس في السرايا ويحب قراءة كتب التاريخ وان لوالده محلاً في البلدة لصناعة التوابيت وصبّ مفاتيح السيارات والبيوت. تحاول أن تجعل أجوبتها غير ذات فائدة.

- هل تشاجر موسى مع أحد؟

- كلا. إنه رجل فنان لا يعادي أحداً.

- هل تعتقدين أن لأقاربه مصلحة في موته؟

- لا أعرف.

وفجأة سألها:

- هل دفع تكاليف اقامته عندك؟

- أعطاني مرة مئتي دولار، لم يسلّمني إياها يداً بيد، أرسلها مع محمود. كذلك أعطى رامي مرة ثلاثمئة دولار. انا لست امرأة غنية والشغل كما ترى.

نهض عن كرسيه متوجّهاً نحو المطبخ. يريد أن يطرح على سعيدة ومحمود بعض الاسئلة لكي ينتهي من هذا الموضوع.

بقيت ريّا جالسة، يداها متكئتان على الطاولة تسند بهما وجهها. سيصل رامي من المدرسة بعد قليل. هبّت نسمة قوية فتطاير غزّال الحور بكثرة وحطّ شيء منه عليها وعلى الطاولة أمامها. لم تحرك ساكناً لتبعده، حطّ منه في شعر المرأة فأشار اليها الرجل الأصلع ومرّر يده على رأسه وضحك. لم تلتفت ريّا. من أين تأتيها هذه القدرة على الجمود عندما يكون الآخرون في أقصى حالات التأهب؟ انه النهر، لا شك، صوت الماء الذي تسمعه من يوم ولادتها.

- هذا الفاريس منك يا ريّا.

عشرات المرات قالتها لها أمها وهي تدل الى ساقيها الجميلتين المخططتين بالازرق. حتى استقامت برامي وامتلأت رجلاها هي أيضاً بالفاريس. سيصل رامي بعد قليل وستضطر للنهوض لاصطحابه من عند الجسر. لو ينتهي هذا الرجل من أسئلته ويريحها! رفاقه في المدرسة ينادونه رامي ريّا كما هي ريّا النهر. تعوّد رامي هذه التسمية كما تعوّد على فكرة أن والده مسافر. اختارت ريّا هذه الصيغة منذ البداية، منذ بدأ

رامي يسأل عن والده.

- إنه مسافر وسيعود في يوم من الأيام.

فاجأها السنة الماضية بالسؤال:

- الى أين سافر أبي؟

لا تدري لماذا أجابته:

- الى الغوادلوب.

وبقيت عليها. الغوادلوب هي الجزيرة التي أخبرتها أمها أن خالتها ياسمين سكنت فيها سنوات عدة مع زوجها الضابط الفرنسي. لن تكذب على رامي الى ما لا نهاية، انها مجرد هدنة فغداً يكبر وتخبره الحقيقة لأن رفاقه في المدرسة سيبدأون قريباً باسماعه كلاماً مؤذياً. إذا عرفوا بهذه السرعة أخبار موسى فلن تتأخر قصتها مع زوجها في الوصول اليهم. رامي بدأ يشبهها، ليس بلون عينيه او بشكل وجهه بل ببعض حركاته وردود فعله، تصرفات صغيرة لا تخطئ. تباطؤه في الإجابة عن الاسئلة، حنية رأسه. لاتريده أن يشبهها، تحب له طلة أخرى على الحياة، طلة قوية وجديدة، تريده أن يتخلص منها ومن والدها ومن جدها خليل، أن تكون له يد وعين جديدتان وحظ جديد. كلما اقترب رامي من صورتها وصورة أهلها ضاقت بها الدنيا.

مرّ محمود بقربها متّجهاً نحو طاولة الرجل والمرأة ذات الشعر الأسود الذي بقي عليه أثر من نفناف الحور. أشار بيده الى البعيد وتساءل بصوت تسمعه ريّا من دون أن ينظر اليها:

- من أين جاءنا هذا الثقيل؟

لا بد أنه أزعجه بالاسئلة. لم يكن في لهجة محمود أي مزاح خلافاً لعادته. انه الآن وحده مع سعيدة، ليسترنا الله.

رجع الى كرسيه، بدا مرتاحاً وحاول تغيير الحديث،

فاقترح على ريّا أن تقطع أشجار الحور وتزرع مكانها الكينا فمناخها لطيف وهي شجرة نظيفة. وقفت ريّا معتذرة لأن ابنها سيصل بعد دقائق وعليها الاهتمام به وإطعامه.

- أنا أيضاً مستعجل لكني أعتقد أنك تودين معرفة ما توصلت اليه.

عادت عيناه تلمعان.

- تفضل.

ابتسم متمهلاً وهو يرمقها من جديد بنظراته الفجّة. انتظرته فلم يحك، فاستدارت لتمشي في اتجاه المطبخ.

- وُجد موسى بشارة ميتاً يوم الاثنين في الثالث من حزيران. تقولين إنك استيقظت في السادسة والربع ولم تجديه اذ كان انطلق في نزهته الصباحية. أوتوكار المدرسة يمرّ في السابعة إلا بضع دقائق.

سكت لثوان. جمدت ريّا في مكانها.

- لكن هل تعرفين أن يوم الاثنين الثالث من حزيران هو اليوم الأول للتوقيت الصيفي وأن الحكومة قررت تقديم الساعة ساعة واحدة؟

لم تجب ريّا بشيء.

- سعيدة تقول انها لم تقدّم ساعتها إلا يوم الاثنين بعدما وصلت الى هنا. أنت كنت عالمة بتقديم الساعة.

- لماذا؟

- لأن أوتوكار المدرسة جاء حسب التوقيت الجديد بدون شك.

انفعلت ريّا.

- ما المقصود بكل ذلك؟

نهض متباطئاً وهو لا يحيد بنظره عنها.

- إغفال بعض التفاصيل المهمة لا يشبه الكذب، إنه الكذب بعينه.

لم تكن ريّا قادرة على أي ردة فعل عنيفة لأن أوتوكار المدرسة وصل الى طلعة الجسر. أضاف وهو يتوجّه الى سيارته:

- لا تنسي أن ساعة موسى كانت متوقفة على السابعة والنصف. انها ساعة غير مضادة للماء، هكذا يقول تقرير رجال الدرك الذين وجدوه.

نزل رامي من الاوتوكار. وضعت يدها في يده وحملت حقيبة كتبه باليد الاخرى. سألها ماذا أعدّت من الطعام للغداء، فلم تجب.

أرسلت رامي الى الحلاق مع محمود، فهو يطالبها منذ فترة بقصّ شعره وترك جديلة صغيرة عند رقبته يربطها بخيط. قالت لسعيدة وهي صاعدة الى غرفتها انها تعبة وتريد أن تنام قليلاً. كان في نبرتها ما يكفي لافهام سعيدة أن تتدبر أمرها من دون أن تناديها. تمددت ريّا على السرير من دون أن تخلع حذاءها، تجد لذة قديمة في وضع حذائها على الشرشف الابيض. لم تعد تعتني برجليها ولا حتى بيديها. نظرت الى أصابع يدها، طويلة وعريضة الاظافر. كانت أمها تصر دائما على القول إن يديّ ريّا تشبهان يديّ ابيها وترسلها اليه لكي تقارنهما، فتهرع ريّا اليه لتضع يدها فوق يده فيفتح لها كفها ويضع سبابته في وسطها ويقول مغنياً:

- هون في بركة فضّة جا العصفور تا يتوضّى.

فتضحك حتى تكاد تغشى. هذه كانت لعبته الوحيدة.

لن تستطيع النوم، لقد بلبلتها حركات هذا الموظف اللعين وتلميحاته. لا تعرف ماذا يريد وماذا يخفي. ستسأل دانيال. أغمضت عينيها وارتخت، من دون فائدة. تقلّبت قليلاً ثم

انتبهت أن هنالك ما يعيدها الى غرفة موسى. انها صورة أمها التي لم تجرؤ حتى الآن على أخذها. كل ما تذكره عن موسى قبل سفره هو صور تجمعه مع العزيزين هند وفؤاد كما يسميهما في رسائله. نوادر موسى بشارة في نيويورك او هنا في لبنان أيام شبابه كانت باباً ثابتاً من أبواب السهرة إذا ما زارهما أحد. كيف لا يؤمن بالبنوك فيحتفظ بأمواله في منزله، ويضع قسماً منه في سطل الزبالة في المطبخ، حتى إذا ما دخل اللصوص شقته لا يفطنون الى البحث فيه، وكيف بقي شتاءً كاملاً في برد لا يطاق لأنه لا يعرف من أين وكيف يدير جهاز التدفئة المركزية. أخباره تُضحك الجميع، تثير التعجب والحنان في الوقت نفسه. اعتقدت دائماً أن ذكر موسى توقف في بيتهم لما وصل خبر زواجه. كأنه لم يكن. هي سألت عنه مرة أو مرتين ولم تحظ بغير اشارة غامضة او بهزة رأس. الصغار لا يثابرون. تعتقد ربّا أنه في الوقت نفسه هبط شيء كالحزن على البيت ولم يعد أبوها وأمها يتبادلان الكلام إلا في ما ندر، والضروري منه.

– يا فؤاد، نفد عندنا الملح والصابون.

– طيّب، غداً.

– أعطني مفتاح الجارور لأحاسب الزبائن.

– تفضّلي. لا تنسي أن تقفليه.

– سأل عنك رئيس الدير.

– ...

موسى أيضاً لم يرسل من بعدها اي اشارة. لا رسالة ولا حتى برقية تعزية. هو ابتعد وتحصّن الدوّار في وجه أخباره.

عاد ليخترق الحصار. أول ما رأته واقفاً فوق الجسر، وسائق سيارة الاجرة متأهب لانزال أغراضه كي يتمكن من

الانصراف بسرعة، شعرت أنها ترتكب خطأ ما اذا استقبلته. لكنه كان فرحاً، متحمساً وأول كلام قاله كانت أشعار أبيها. كان يتنشق هواء الدوّار كمن يتنشق هواء روحه. لم يترك لها أي مجال للتردد، وعندما قادته الى غرفة والديها ووراءهما محمود يحمل الحقيبة الكبيرة عاودها الشعور بالذنب نفسه. توقفت في منتصف الدرج وادّعت أنها نسيت أين وضعت مفتاح الغرفة. محمود الذي صدّق ادعاءها خرّب عليها المحاولة عندما ذكّرها انها تضعه عادة فوق حاجب الباب فاعتذرت عن سهوها. عاودت الكرة عندما شكت همومها أمامه وأن الدنيا ضيقة عليهم في الدوّار. أسمعته في ما بعد مرات عدة كلاماً من هذا النوع. كان يسايرها بابتسامة او باجابة يغيّر بها الموضوع. كان موسى مصمّماً على الاقامة هنا وهي لم تستطع اعتراضه.

كيف تخبر ذلك لموظف شركة التأمين أو لأي كان؟ لن تُدخل أحداً الى حياتها وحياة أهلها. من أين أخرج قصة تقديم الساعة؟ منذ أدار سيارته ومشى ملقياً عليها نظراته الحارقة الكاذبة، وهي تحاول ترتيب المسألة في رأسها. لكن عبثاً فهنالك فراغ يعصى عليها. طيّب: قدّموا الساعة يوم الاثنين، هي لا تحمل ساعة يد، لم تتعوّد حملها، تتركها في خزانتها ولا تقتني منبّهاً في الغرفة. الشمس، الضوء يوقظانها. سائق الاوتوكار وباقي التلاميذ وأهلهم عرفوا بتقديم الساعة فيكون الاوتوكار قد مرّ وفق التوقيت الجديد. وهي انتظرته وفق هذا التوقيت أيضاً من دون أن تدري به. يبقى موسى. إذا انطلق الى نزهته الصباحية متأخراً ساعة بحسب التوقيت الجديد فيكون عليها أن تستيقظ وتجده لا يزال في غرفته. وإذا كان قد قدّم ساعته؟ واذا لم يقدّمها؟ دوامة يصعب الخروج منها. لم

تنظر الى ساعة المطبخ عند الصباح لأن الاوتوكار أطلق زموره وهي ما زالت فوق فأسرعت اليه مع رامي. نظرت فقط الى ساعة السيارة لكنها لا تركن اليها لأنها تتوقف في الليل وتدور مجدداً فقط عندما يعمل محرك السيارة في الصباح. كانت تشير الى الواحدة أو الواحدة والنصف. يقولون لها إن كهربائي السيارات يمكنه إصلاح العطل في دقائق، وهي تتكاسل في الذهاب اليه.

حملت صورة أمها. تريد الاستعجال في أخذها قبل أن يفتحوا الوصية ويتقاسموا أملاكه ومتاعه. ذهبت مباشرة الى زاوية الغرفة وحملتها وأقفلت الباب بسرعة. انتبهت حين دخلت مع رامي الى الغرفة بعد عودتها من الجناز الى تلك اللوحة المبروزة المغطاة بورق أبيض. لا تذكر أنه كان بين أغراضه يوم وصل من أميركا لوحة مبروزة. قد يكون صنع لها بروازا هنا بالخفاء عن ريّا وقد يكون كلّف دانيال تلك المهمة. عندما كان الكلام عن موسى لا يزال دارجاً عندهم، كانت إذا وقعت في يد ريّا صورة شمسية لأمها أو واحدة من صور الصبا وهرعت اليها تقول:

- كنت جميلة جداً يا أمي!

كانت تجيبها:

- لو ترين كيف رسمني موسى! أجلسني تحت شجرة اليافاوي هناك، في طرف البستان، قبل أن يسافر.

من حيث أجلسها يمكنها أن ترى دير مار سمعان من جهة الحائط الذي كان يكتب عليه المهاجرون أسماءهم ومن جهة

الكنيسة وساحتها الصغيرة المزروعة شربيناً، يقصدونها للعمادات والاعراس العائلية، ويمكنها أيضاً أن ترى الطريق المؤدية الى ملعب كرة القدم. لكنها تنظر الى القريب، تنظر الى الناظر. هل كان موسى يرتدي فوق ثيابه المريول المبقّع بالألوان أم أصر على الابقاء على أناقته وهو يرسمها، وهل كان يقف وحيداً أم كان أحد ما يتفرج عليه وهو يرسم؟ تبدو مرتاحة، طريقة جلوسها محتشمة وفستانها يغطي ركبتيها. لا بد أنها احتارت ماذا تفعل برجليها فوضعت رجلاً وراء الأخرى لتخفيها. أحست ريّا وهي ممددة على سريرها تتأمل الصورة التي أوقفتها قبالتها على سرير رامي، أن في طلّة أمها ونظراتها شهوانية لا تعرفها فيها.

أخذها معه الى أميركا. قد تكون شاهدتها زوجته أو إحدى النساء الاميركيات اللواتي أحبينه فسألنه عنها. هل علّقها على أحد جدران شقته يتباهى بها ام خبّأها لأنه صار يخجل من مرحلته التصويرية حين كان يرسم نبع الماء ماءً وشجر الزيتون زيتوناً؟

سمعت ريّا صوت رامي يصعد الدرج عائداً من عند الحلاّق. سارعت الى اخفاء الصورة هرباً من أسئلته. انتبهت وهي تحملها لتضعها تحت السرير أن موسى قد وقّعها وأضاف الى جانب توقيعه في زاويتها اليمنى تاريخاً لم تتمكن من قراءته. دخل رامي مسروراً بجديلته الصغيرة ومحاذراً ردة فعلها لأن الحلاّق أفرط في تخفيف شعره من أجل ابراز الجديلة، فهرع اليها يعانقها ويقبّلها. من سنوات لم تعد ريّا مذعورة من إمكان موتها، لكن كل فكرة تذكرها بموتها تقودها الى رامي. تتمنى أحياناً لو يكبر بسرعة ويخشن لكي يتدبر أمره بدونها. من الامور التي لا يمكن ريّا تخيلها في أية صورة

من الصور هي كيفية تدبر رامي لأموره بدونها. تودّ، من دون أن يراها، أن تراقبه في يوم من الايام كيف يشتري من الدكان، كيف يستقل سيارة أجرة ويدفع للسائق، كيف يتشاجر مع سفيه ويتبادل معه الاتهامات والشتائم، وكيف ينام مع النساء، خصوصاً كيف سينام مع النساء. تتساءل دائماً عن أسلوبه في الحياة عندما يكبر. لا تريده أن يكون متساهلاً لأن الدنيا مليئة بالريّاء والحسد. في الحقيقة تريده قوياً منيعاً قبل كل شيء وليكن بعد ذلك ما يشاء.

يداعبها وهي تمسك له جديلته وتضحك.

- رامي سيصبح فتاة، ماذا نسمّيه؟

يغضب ويضربها بيديه الصغيرتين. تراضيه فيطلب منها ألاّ ترسله في الغد الى المدرسة.

- انه اليوم الاخير، سيقيمون لكم احتفالاً. ألعاب وأغان وهدايا.

لا يريد. لايحب الحفلات ولا يقول لماذا. حمل كتاب استريكس ونزل يقرأ في المطعم. بقيت ريّا وحدها من جديد.

منذ ظهر موسى بشارة من جديد، منذ نزل في الدوّار بدأت ريّا تشعر أن الارض تزحل من تحت قدميها، أن خطراً يتهدّدها عند كل منعطف. وأنها بعد موته دخلت في نفق معتم لا تعرف من أين تأتيها فيه الضربة. متى صارت الدنيا هشة هكذا، واقفة بمحض المصادفة؟ يخفق قلبها اذا جاء رامي مشتكياً من أمر حصل معه في المدرسة أو اذا قالت سعيدة على عادتها كلاماً فيه تلميح حتى انها تستنفر اذا ما انتبهت أن أحد الزبائن يطيل النظر في اتجاهها. كمن ينتظر الخبر الاخير ولا يعرف ما هو، ولا من سيحمله اليه.

نزلت الى المطعم، كان خالياً من الزبائن. رامي لوحده يقرأ ويمازح محمود الجالس إزاءه. خف الهواء وخفّ تساقط غزّال الحور فوق الطاولات. سعيدة داخل المطبخ تشتغل بالابرة. رامي لم يرها. دارت حول البيت لتطمئن مجدداً على الغاردينيا لكنها فضّلت إكمال طريقها نحو غرفة البستان، غرفة جدها خليل. غرفة الثورة.

رأت الدم مرتين في الثورة. مرة جاؤوا بشاب جريح،

أركبوه حماراً وأطلّوا به فجأة عند الجسر والدماء تنزف من وجهه. كان مصاباً في فمه. تراه حتى اليوم أحياناً في السوق فتتطلع الى الجورة في خده حيث تلقّى الرصاصة التي قيل إنها خرجت من الخد الآخر. ركضت مرة اخرى لما سمعت صراخ امرأة من جهة الدير. رأت جمعا ولم تستطع الاقتراب لا تتذكر لماذا، قد تكون أمها منعتها من ذلك. كانوا يتصايحون والمرأة تطلق صرخات متقطعة. بعد وقت انفتح الجمع وأقلعت من بينهم سيارة مرسيدس سوداء تطلق زمورها بدون توقف. رأت الرجل ممدداً في الخلف مسنداً رأسه الى صدر المرأة ووجهه مشدود من الألم. له شاربان أسودان. لم يمت لأنهم وفقوا بجرّاح بارع استأصل له الرصاصات الثلاث من بطنه، وقطّبه ثمانين قطبة.

وقفت أمام باب الغرفة وفي يدها قصيدة والدها. وجدتها في غرفة موسى، على الطاولة الصغيرة، مرمية كأن موسى كان يقرأ فيها ووضعها من يده ليعود اليها ولم يعد. كان يحبهم وفتح لهم الدوّار. رجال، كل رجل يحمل بندقية ويزنّر جسمه بحبال الخرطوش، ومنهم من يحمل رشّاشاً له قائمتان صغيرتان في المقدمة. كانوا جميعهم مسلحين باستثناء والدها. كان طوال الوقت جالساً يكتب. يوم وصلت وثقة بنادق المعدّلات الطويلة التي أرسلها اليهم شمعون على ظهور البغال، ومعها مدفع الهاون من عيار ستين، جرّبوها في جذع الدلبة وصاروا يقيسون مدى اختراقها ويقارنونها ببندقية الأم اصبع. لم يكونوا يأخذون على والدها تقاعسه عن القتال رغم انه عفيّ وقويّ مثلهم. يعرفون ربما أنه غير مؤهل لذلك وأنه قد يعوقهم بدل أن يسعفهم. أخذوه معهم مرة وأوقفوه عند أحد مفارق الطرق وقالوا له:

- يا فؤاد، انتظرنا هنا، لا نريدك أن تتوغل معنا لكن افتح عينيك جيداً. إذا مرّ مسلّح في هذا الاتجاه ولم تطلق عليه النار عرضتنا جميعنا للموت.

كانت ساعة من أطول ساعات حياته كما قال، أمضاها يبتهل للعذراء مريم أن لا تدع أحداً يمرّ.

هم أيضاً كانوا يحبّونه ويمازحونه، يستدرجونه لينفعل، فيحكي فيضحكون. أمها تطعمهم، يأكلون كثيراً. تسلق لهم البيض في الطنجرة ولا يبقى من بعدهم لا لحم ولا خبز. ذات يوم والجبهة هادئة منذ ثلاثة أيام جاؤوا بعشرة فراخ حنكليس نهري اصطادها أحدهم بالكلس. نظفوها وملّحوها ودقّت لهم أمها بيدها في الجرن خمسة كيلوغرامات من لحم الماعز الطري. ليلتها رتّبوا المائدة، جمعوا كل طاولات المطعم جنباً الى جنب، سكبوا كاسات العرق وجلسوا. دوّى طلق البندقية فتوقف الجميع وانتظروا. كل اشتباكات الثورة بدأت بهذا الطلق الصافر الذي يرجع له صدى لئيم في كل مرة، لأنه يُطلق في سكون الجبهة والمتاريس. عندما صاروا يسترجعون معاً بعد سنوات ذكريات المعارك، كل طرف كان مقتنعاً أن تلك البندقية كانت تنطلق من جهة الطرف الآخر. ساد صمت تام فدوى انفجار كبير انهمر من بعده الرصاص من كل الاتجاهات. أسرع الرجال الى أسلحتهم وتفرّقوا في الليل. بقي والدها وحده جالساً والمائدة الكبيرة بقيت كما هي. بعد قليل حام الذباب على الاكل، وقال والدها إنها ستكون ليلة قاسية. عادوا في اليوم التالي وأخبروهم أن جماعة الثورة أرسلوا نحو متاريسهم كلباً محملاً ديناميت، لكن رجالهم كانوا يقظين فما إن سمعوا أصواتاً وحراكاً، أطلقوا النار في الظلام فخاف من في المتاريس المقابلة أن يرجع الكلب في

اتجاههم، فراحوا يطلقون النار بدورهم الى أن انفجر الكلب بحمولته من الديناميت في المنطقة الفاصلة.

كانوا يأتون أيضاً الى الدوّار ليستمعوا الى الاخبار من الراديو. كان الراديو موضوعاً في الخارج وقد مُدّ له شريط كهربائي طويل. يتجمعون بقربه. يستمعون الى الاذاعة اللبنانية واحياناً الى صوت العرب من القاهرة، واذا لم يعجبهم التعليق أو الخبر راحوا يعصون الراديو أو يطلبون من المذيع ان يخرس ويشتمونه.

أمضت ربّا أشهر الثورة هنا، حول غرفة جدها خليل. تحولت منذ زمن مرتعاً للأواني المهملة والأخشاب والحدائد. تعود اليها من وقت لآخر وتفتح بابها البدون قفل. ضاقت بالاغراض والخردة حتى أنه لم يبق مكان للوقوف فيها. أسكنوا جدها خليل هنا، ومنعوه من التوجه الى المطعم لأنه صار يجالس الزبائن بدون دعوة ويدّعي أنه سافر على ظهر التيتانيك، ويعدد أسماء المسافرين اللبنانيين على متنها وقراهم ويتحدث عن أمير من آل شهاب وحده من بينهم يتقن الإنكليزية، كان ذاهبا ليتعلّم الموسيقى في أميركا، ثم يروي جدّها كيف تخفّى هو في ثياب امرأة وتمكن من النجاة بينما راح باقي رفاقه اللبنانيين الذين تأكدوا انهم هالكون لا محالة يرقصون الدبكة فيما الباخرة تجنح نازلة الى قعر البحر. انها ليست قصته لأنه لم يبحر الى أي مكان بل هي قصة رجل من أصدقائه من قرية حردين كان يخبرها عن لسانه وراح بعد ذلك ينسبها لنفسه. الزبائن يعجبون لمغامراته، لكنه سرعان ما يفضح نفسه إذ يعلن لهم فجأة أنه سيتزوج بعد أسبوع ووالدته

ممانع في ذلك. وكان أحياناً ومن دون مناسبة يصرخ:
- لا إله الا الله ومحمد رسول الله.

كان الزبائن يبتسمون. في شهر رمضان يمتلئ المطعم بالعائلات المسلمة. رتّبوا له الغرفة وصاروا يأتونه بالطعام كي لا يغادرها.

في الثورة كانت ريّا حصته، التهوا عنها وعنه. يوم يعرفها يعطيها من تحت مخدته البونبون أو يخبرها هي أيضاً حكاية نجاته من التيتانيك، وعن الأمير الشهابي الذي يعزف على الكمان. يجلسها في حضنه ويضمّها ويشكو اليها سوء معاملة أبيها وأمها له. أحيانا كثيرة لا يعرفها، يسألها عن اسمها فتعتقد أنه يمازحها، لكنه يصرّ على غربته ويتمدد فوق سريره، يدير وجهه صوب الحائط ويقول وهو يحاول أن يراضي نفسه:

- أفضّل أن أسكن هنا بدل الاقامة هناك، في ملفى العشّاق.

ثم لا يلبث أن يضرب الحائط بقبضته وهو ينغّم بصوته متوعّداً:

- يا أهالي الدوّار سيطوف النهر من جديد ويخرب بيوتكم على السحساح هذه المرة، بإذن الله.

ويكرّر بالفرنسية ما قاله بالعربية ويضيف اسم الضابط كارتون وأسماء ضباط آخرين من الجيش الفرنسي، ويظل يهذي بلغة فرنسية مبهمة وبصوت خافت حتى ينوس وينام. ريّا تموت فزعا كلما هدد بالطوفة، وتعتقد أنها ستغرق، وأن جدها خليل سينجو وحده بواسطة مركب صغير ومجذاف وهو يضحك عالياً. كان هادئاً في أغلب الاحيان. انفجر ضد الطائرة. كانت ريّا تحمل له صحن فاصولياء بالأرز ورغيف

خبز على طبق، وتمشي على مهلها كما أوصتها أمها كيلا توقع الطعام حين مرت الطائرة في اتجاه الجبل محدثة صوتاً رهيباً.

- انبطحوا.

وقبل أن تعرف ريّا ماذا تفعل بطبق الاكل، عادت الطائرة فوق الدوّار وعلى علوّ منخفض. خرج جدها خليل من غرفته وبدأ يصرخ في اتجاه السماء ويشتم الطيار وأمه وسلالته ويدعوه الى ضرب الثوار مؤكداً أنهم هنا في الدوّار من حزب الدولة وأنهم لا يخافون واذا كان قبضاياً فلينزل ويقاتل رجلاً مقابل رجل. ظل يرعد بعدما اختفت الطائرة حتى أحاطوا به وأعادوه الى غرفته.

صحيح أن والدها لم يحرس معهم في المتاريس ولم ينقل السلاح والذخيرة لكنه ألّف عنهم القصيدة الزجلية الشهيرة. كانت مكتوبة بخط موسى على كرتونة من غلافات الدفاتر، وأضاف اليها عنواناً: **ملحمة موقعة سنة ١٩٥٨ بقلم الصديق الشاعر فؤاد ابوخطار**. جلست ريّا على عتبة باب جدها خليل ومددت رجليها على العشب الرطب المتكاثر حولها. موسى لم يكن قد بدأ يتردد على الدوّار أيام الثورة. ربما طلب من والدها أن يعيدها عليه فكتبها، فالكرتونة لا تبدو عتيقة أو صفراء. هذه القصيدة لم تذهب الى أميركا.

لم تحفظ ريّا منها الا مقاطع متفرقة، كل مقطع من أربعة أبيات تحكي عن واحد من أبطال المعركة. كانوا واحداً ضد عشرة وخرجوا منتصرين. فاجأهم بها قبل أيام من وقف إطلاق النار ونزول الجيش ودخوله المناطق كافة. هتفوا له لما طلع بها، وطلبوا منه أن يقف على الكرسي. ذكرهم كلهم، كل الرجال المنتظرين تلك الليلة في الدوّار انتهاء هذه الثورة التي وضعوا فيها ولأكثر من ستة أشهر، دماءهم على أكفّهم.

طيّبوا له وصفّقوا، ولما وصل الى ابو عبله وسمّاه النمر الجارح وقف ابو عبله بشرواله وأفرغ طلقات بندقيته الخمس في عب الدلبة الكبيرة. حفظها الكثيرون عن ظهر قلب ولا يزال هنالك حتى اليوم من يعرفها ويرددها. بعض الذين شاركوا في المعارك ونسيهم جاؤوا يعاتبونه فكان يضيفهم الى القصيدة فيترحمون له على موتاه. وبعض الذين لم يشاركوا طلبوا منه ادخالهم فرفض.

أسندت ريّا رأسها الى باب الغرفة ووضعت قصيدة والدها في حضنها. كان الرصاص لا ينقطع، ومن حولهم القصف بمدفع الهاون، حتى الطيران والقتلى والجرحى وخراب البيوت. لكن الدنيا كانت ثابتة لا تتزحزح.

لم تخبر دانيال أنها دخلت غرفة موسى وأخذت صورة أمها. لا تريد أن تتورط بشيء ولو بالكلام، وهي لم تعد تأمن احدا. ينزل دانيال الى الدوار، ينضمّ اليهم في المطبخ، يحب الجلوس على واحدة من كراسي القش الواطئة. موت موسى قد يكون أعطاه هذا الحق. قبل ذلك، قبل ذلك بيوم واحد ساعة جاء يسأل عنه ليصطحبه في رحلة فم الميزاب وهو ينتعل الحذاء الرياضي الملوّن والمضحك، دخل عليهم كالغريب وحكى معهم كالغريب. جاء اليوم قبل الظهر بقليل، حاولت توتسي التحرش به فطلب من ريّا إبعادها.

- لديّ حساسية على الهررة، انها تتسبّب لي بالحكاك.

لم تصدقه. وصل في عزّ انهماك سعيدة التي رمقته بنظرة طويلة صامتة وهو يرمي السلام. ريّا ضاقت ذرعاً بها وتحب أحيانا أن تعذّبها فهي لم تسألها مثلا ماذا طلب منها موظف شركة التأمين ولما حاولت سعيدة إخبارها ادعت ريّا ان الموظف ابلغها ما دار بينهما. أحبت اليوم الانتقال الى الهجوم. فما إن جلس دانيال حتى قالت بصوت عال لكي تسمع سعيدة:

– لقد أهداني موسى يوم السبت رسماً زيتياً لأمي وهي صبية.

كذبت عليه عن قصد. كان دانيال قد أشعل سيجارة من فحم النارجيلة. لم تلتفت سعيدة عند سماعها كلام ريّا الا انها توقفت لحظة عن الطرطقة بالصحون وراحت تشغل يديها في المجلى ببطء وهدوء كي تتمكن من الاصغاء. عرفت ريّا أنها قامت بهجوم مباغت فافتعلت سعالاً خفيفاً وتأخرت في إكمال ما بدأته. إنها تريد اعطاءها الوقت لكي تركّز انتباهها، وسعيدة متحرقة للاستماع، لكنها لا تريد التنازل والاستدارة نحو ريّا.

– كانت أمي تقول لي إن موسى أجلسها هناك في آخر البستان قرب السياج، تحت شجرة الليمون اليافاوي ورسمها. كنت أتاملها يوم أمس، فانتبهت أن لا أثر لشجرة اليافاوي التي قالت امي انها جلست في فيئها، بل مجرد أفق أزرق تسبح فيه بعض الغيوم البيضاء الصغيرة.

– انه ليس الرسم الذي حكت لك عنه أمك.

كان دانيال يبتسم ابتسامة العارف بسرّ الامور، ويقتصد هوايضاً في الافصاح. فجأة سأل سعيدة:

– يا سعيدة، هل تتذكرين موسى قبل أن يسافر؟

التفتت سعيدة كأن حية لسعتها.

– أنا يا ابني أعمل هنا بأجرتي.

كأنها لم تسمع السؤال، وهي ربما مستعدة لهذا التصريح أياً تكن مناسبة الكلام.

– ان الاستاذ موسى رسام قدير جداً. إذا كان يملك صورة من صور جوازات السفر يقوم بتركيب الوجه على جسم آخر ويضعه في الاطار الذي يريد.

وأكمل وهو يضرب أمثلة عن لوحات مركّبة، وراح يذكر أسماء رسامين أدخلوا اللون الاخضر على البشرة واللون الزهري على الشعر. وأضاف:

- الحمد لله ان الاستاذ موسى لم يصل الى هذا الحد.

انه ليس جسم أمها اذن هذا الجسم الفظ، وهي لم تكن تنظر الى موسى بل الى المصوّر. موسى أنعم النظر اليها عندما نقلها عن الصورة، وهي لم تره.

ربّا أيضاً تحب أن تتصوّر. لم يكن في استطاعة أحد منعها من الوقوف مع العرسان والعائلات الذين يرحّبون بوجودها معهم، لكن هراتش كان يوقفها الى أقصى اليمين أو اليسار لكي يتمكن من إخراجها من اطار الصورة. كانت راضية. المهم أن يلمع الفلاش في وجهها.

- ألم يتوقف منذ زمن طويل عن رسم الوجوه؟

- هل أخبرك انت أيضاً بهذا الموضوع؟

واستطرد متنهداً:

- لا أعرف من أين أتى الاستاذ موسى بهذه الآراء. أعتقد أنها كانت شائعة في نيويورك لما وصلها في الستينات، وقد تأثر بها فترة من الزمن.

- لو أعرف الرسم لكنت رسمتكما من شباكي، هو جالس على سطح الطاحون يرسم السماء والجبال وانت واقف وراءه تحرسه.

فهمت الآن لماذا كان دانيال يتابعه بهذا الانتباه وهو يرسم. كان متلهفاً لرؤيته يستعيد فنه كما تتلهف الأم لرؤية طفلها يقف على رجليه من دون مساعدة أحد.

خرجت سعيدة مكرهة لتشوي أقراص الكبّة على الفحم. افتكرت ربّا في انتهاز الفرصة لكن دانيال كان أسرع منها.

- من زاركم اليوم؟
- من أخبرك؟
سعيدة على الأرجح.

هي أيضاً لا تدري لماذا صار صوتها هامساً. رجع الى عادته: ما ان تبدأ بينهما بوادر سرّ حتى يمسكها من يدها. يده تنضح عرقاً في كل وقت. انتزعت يدها بصورة عفوية. انها لا تعرف شيئاً عن دانيال. تعرف فقط نوادر عن عائلته. ان لديهم كتاباً ظلوا يقرأون فيه وينادون ملوك الجان حتى حضر عليهم الشيطان ذات ليلة وأشبعهم ضرباً ويقال أيضاً إن الشيطان لم يظهر عليهم بل أنهم تعاركوا في ما بينهم لأنهم اكتشفوا كنزاً واختلفوا على تقاسمه. سمعت كثيراً ان دانيال مختلف عنهم. أخبار كل الناس تصل الى الدوّار ربما لأن الأخبار تميل الى النزول والتجمع في الأسفل.

أخبرها دانيال قصة يوسف اسطفان الذي سافر الى اوستراليا في أول سنوات الحرب وعمل في سيدني في دائرة فرز البريد، وقدم طلباً للحصول على الجنسية الاوسترالية، ولما سأله القاضي هل يريد أن يغيّر اسمه أجاب أنه يريد أن يطلق على نفسه اسم جون سميث. أمضى هناك عدة سنوات اشترى خلالها بوليصة تأمين على الحياة بمبلغ كبير. لكنه عاد الى لبنان وفتح دكاناً للسمانة. بعد فترة من عودته قام بتمثيل موته وأرسل صوراً وشريط فيديو الى شركة التأمين يبدو فيها مسجى فوق تخت وفي أنفه قطن أبيض، وحوله أمه وأخواته ونساء من جيرانهم يبكين عليه ويندبنه، وقد حللن شعورهن. لم تنطل الخدعة على شركة التأمين التي كلّفت شخصاً ليتحرى لها عن يوسف اسطفان فاكتشف أنه حيّ يرزق. لم يدفعوا له بل أقاموا ضدّه دعوى احتيال هنا وفي اوستراليا. شركات

التأمين توفر اموالها بهذه الطريقة. لم تفهم ريّا كل هذا الشرح.

مرة اخرى ابتسم كأنه يعرف الكثير ولا يريد ارهاقها بما يعرف. تركت ريّا فنجان القهوة يقع من يدها وينكسر على الارض. لم تعد تحتمل الاسرار والتلميح. دخلت سعيدة وسارعت الى لمّ شظايا الفنجان وهي تقول:

- كبّ القهوة خير.

وفي لهجتها متعة تشبه متعة الثأر.

تلك الليلة سرقت تمثال بيتهوفن من بين يدي رامي وهو نائم. تمددت الى جانبه، قبّلته فوق جبينه، تقبّله هكذا أربع مرات أو خمساً في اليوم، منذ كان رضيعاً، لتطمئن أنه ليس محروراً. فكّت أصابعه فأرخاها. حملت التمثال ونهضت بتمهل كي لا توقظه. حملت حذاءها، مشت على رؤوس أصابعها ونزلت. أدارت سيارتها ومشت بها الى البلدة. رمته في أحد براميل النفايات الكبيرة الموضوعة وسط الطريق وعادت. إذا سألها عنه رامي ستقول إن أحدهم سرقه.



III

جاء يوم السبت وفهمت. تحب أن تعتقد أحياناً أن جميع الذين يحيطون بها يؤدّون دوراً مرسوماً. كلّهم، محمود، سعيدة وموسى لا بل موسى وملاكه الحارس دانيال في شكل خاص. خطرت لها يوم أمس فكرة أن موسى لم يمت، فهي لم تره بعينها ميتاً، وأن ما يحدث ليس سوى امتحان لها. تتخيل حتى أن رامي مشترك معهم. جاء الآن دور بوليصة التأمين، وعرفت لماذا أخبرها دانيال عن يوسف اسطفان وشركة التأمين الاوسترالية. كان عالماً بالوصيّة وبحصتها منها. فقرة قصيرة: **والى ريّا فؤاد ابوخطار كامل المبلغ العائد من بوليصة التأمين على الحياة التي لدي عند الشركة الاميركية للتأمين تحت الرقم ZKD 25702، وللشركة مكتب في بيروت يمكن متابعة المعاملات لديه.** هذا كل شيء. أضاف كاتب العدل أن موسى الذي سلّمه الوصية عند وصوله من أميركا زاره قبل موته بوقت قليل لإدخال بعض التعديلات عليها، ومنها انه أضاف اسم والد ريّا على اسمها.

– لتمييزك ربما عن امرأة أخرى تحمل الاسم نفسه. هل

هناك ريّا ابو خطار ثانية؟

ردت بالإيجاب. حدّق كاتب العدل اليها طويلاً.

- هل يمكن أن أعرف ما هي التعديلات الأخرى؟

ابتسم وأجابها أن كاتب العدل في هذه الامور يشبه الكاهن في سرّ الاعتراف.

بحسب ما قاله لها دانيال في النزهة بالسيارة اعتقدت ريّا ان كاتب العدل سيفتح الوصية أمام الأقرباء والمستفيدين ويقرأها عالياً وانه سيكون هنالك ابتسامات واغماءات.

- هذا يحدث في السينما.

قال لها كاتب العدل. ثم أوضح أن القانون يخوّله فقط إطلاع كل مستفيد على البند الخاص به. جاءت وحدها، تلفن لها سكرتير كاتب العدل وحدّد لها موعداً في العاشرة والنصف. عندما خرجت من المكتب وجدت في غرفة الانتظار رجلاً وامرأة في العقد الخامس من العمر، كأنهما انقطعا عن عملهما فجأة، هو عن النجارة مثلاً وهي عن الغسيل، من أجل أمر طارئ عند كاتب العدل. لا تعتقد أن لهما علاقة بوصية موسى. لم تر أحداً، لا سلوى ولا روميو. ريّا كانت تتوقع أنه سيوصي لها برسم أمها أو بأشياء من هذا القبيل. افتكرت مرة بمحوّطة الحريق التي كان موسى يأتمن والدها عليها.

- كم يبلغ هذا التأمين؟

يقدّر كاتب العدل ان التأمين على الحياة يزيد على المئة ألف دولار. ستسأل دانيال فهو يعرف كل شيء. ستطلب منه ان يعرّفها في يوم من الايام على الأب يوحنا.

كان انتظار معرفة ما كتبه لها موسى في وصيته مثيراً على كل حال، وهي كانت تحب أن تطيل فترة الانتظار هذه. منذ

سنوات طويلة لم يعد لدى الدنيا هدايا تقدمها اليها. منذ كانت صغيرة، أيام كان خالها يصل واضعا يديه خلف ظهره ليخبئ عليها اللعبة التي اشتراها لها. كانت ريّا المتلهفة تستدير حوله وهو يتهرب ويطلب منها أن تحزر ما هي الهدية. يعذّبها كثيراً قبل أن يتساهل ويعطيها اياها شرط أن تقبّله قبل ذلك ثلاث مرات فوق كل خدّ. القليل الذي حصلت عليه كان مكلفاً. حُرمت اشياء كثيرة. حُرمت من كميل. لم يبح لها بحبه في بداية الامر، صار يكتب اسمها واسمه في كل مكان، وصل اخيراً الى حائط الطاحون مقابل المطعم، ريّا وكميل الى الأبد، كتبها في الليل بالفرشاة وبالبويا التي يستعملها الدهّانون. لا تعرف لماذا أحبها. ربما بسبب شعرها الطويل. كان الجميع معجبين بشعرها الطويل، حتى سور أنا - ماريّا.

اعتقدت أنها تميّزه عن أخيه التوأم جميل. حتى اليوم الذي رأته فيه من بعيد قادماً في اتجاه المطعم. صارت تسمع ضربات قلبها لأنها اعتقدت أنه يقصد النزول والتحدث معها. كان المطعم مليئاً بالزبائن، ووالدها يجلس الى طاولته المعتادة. وقفت في باب المطبخ، نصفها الى الداخل ونصفها الى الخارج، وقرّرت بينها وبين نفسها أنه اذا ما نزل صوب المطعم ستهرب الى البستان، الى غرفة جدّها خليل. مرّ فوق الجسر وأكمل طريقه في اتجاه الدير، لم يكد يتطلع نحوهم. كان هذا جميل، يرسله ليستكشف الاوضاع. أخبرها بذلك عندما صارا يلتقيان سرآ. جميل يكاد لا يعرف القراءة والكتابة لأن أخاه يحلّ محله في الامتحانات وقد تقدّم مكانه الى شهادتي السرتيفيكا والبريفه ونجح. أحبها المتعلم الذي يحب السينما وقراءة القصص، كانت قبلاته حارة وخجولة. هو في صف الفلسفة وهي في الثانوي الأول. أخوه جميل ترك المدرسة،

يئس من لعبة البدل، ولم يعد يحب أن يشبه أخاه فاطلق شاربيه. كانت تعدّ الأيام في المدرسة، في بيروت، استماتت للحصول على إذن بالعودة الى البيت في نهاية كل أسبوع لكن سور جوزيفا مصنوعة من حجر. مرة فقط أرسلتها الى البيت، عندما اغتال الاسرائيليون زعماء فلسطينيين في بيروت، وقيل يومها إن الاسرائيليين تخفّوا في زيّ نساء. كانت ستجري في اليوم التالي تظاهرة كبيرة في بيروت، ففضلت سور جوزيفا ارسال الداخليات الى أهلهن.

لكن كميل انطفأ، صار يغيب. سمعت من احدى رفيقاتها أن أهله لا يريدونها لابنهم.

– بسبب صيت الدوّار وبسبب صيت أمك.

قالتها. هكذا بعينها. التقته مرتين أو ثلاثاً بعد ذلك. لم تسأله عن صحة ما سمعته، صارت تتحاشى اي حركة، اي مداعبة، يقبلها فتبقي فمها مطبقاً. حاولت تكذيب صيت الدوّار وصيت أمها. لكنه رحل، أرسلوه الى الجامعة، أبعدوه عنها ولم يمانع. بقي قلبها يدق عند رؤية جميل، لكن ما ان ترى شاربيه حتى تعرف أنه ليس هو. بكت كثيراً وقصّت جديلتيها الطويلتين ووضعتهما في الخزانة. لا تزالان فيها.

- هل يمكن شركة التأمين ان تجري تحقيقاً في موت موسى بشارة؟

لم يكترث كاتب العدل وأجابها أن الامر طبيعي، فهم يريدون أن يحفظوا حقهم خصوصاً وأنهم لا يستطيعون الاتكال على أجهزة الدولة. وأضاف أن شركات التأمين لا يُخاف عليها. سألته أيضاً اذا كان موسى بشارة حراً، قانونياً، في اعطاء ما يريد لمن يريد. فكّر لحظة وردّ بالايجاب.

ماذا تفعل بهذا المال اذا استطاعت الحصول عليه؟ منذ السبت، يوم ابلغها كاتب العدل قيمة حصتها في وصية موسى وهي لا تنام قبل طلوع الضوء. لا تعرف ماذا استنتج هذا الموظف اللعين من إجاباتها. تتقلّب واذا أغمضت عينيها ينقطع نفسها فترتعد وتشعر انها ستموت. صارت تخاف النوم، لكنها في ساعات الأرق الطويلة تأملت في كل شيء. تنهض، تحضر لنفسها الشاي، تنزل الى المطعم، تفتح الباب وتستمع الى أصوات الليل. تمشي حافية وتشد رجليها على البلاط البارد.

أول ما تودّ القيام به هو إبعاد رامي عن الدوّار، عن زفرة النهر كما كانت تقول أمها. لم تكن تريد لريّا أن تنام في الغرفة المطلة على النهر فأبعدتها الى الغرفة الثانية المطلّة على بستان الليمون خوفاً عليها. تلفظ ريّا عبارة زفرة النهر غصباً عنها. وقد طلبت من أمها أكثر من مرة أن لا تستعملها فكانت تضحك وتقول:

– ماذا تريدين أن نقول يا ست ريّا؟

الغربيّة لضباب الجبال والملاّح يغطي الأرض والشجر. تذكّرها الكلمة بأشياء لم تكن ربما تخطر في بال أمها، فان أمها امرأة رقيقة ورغم أن ريّا تعذّب قلبها بالأسماء والكلمات فانها كانت تتمنى أن تُحسن الكلام مثل أمها. تريد إخراج رامي من الدوّار. لقد بدأ السنة يشكو من وجع في ركبتيه، لن يفلت من داء المفاصل. لا تريد أموال التأمين، لا تريد مال موسى بشارة فهو أعطاها بدل اقامته عندها. تريد فقط ما يكفيها لتشتري بيتا بعيدا. في مناخ جاف على الاقل حيث لا ضباب ولا موت صباحي. بدأ الألم في كتفيها، يوقظها ولا يخفّ إلا عند الظهر. تعوّدته وتوقّفت عن الشكوى منه ومن أوجاع ظهرها ورجليها فهي تعرف إجابة الناس وإجابة الطبيب. الرطوبة.

أمها أيضاً أمضت حياتها تطالب ببيت لها.

– يا فؤاد، أخرجني من بين الناس!

كان والدها يهمدر قائلا:

– منشوف، منشوف.

أهلها أعطوها الدوّار وأعطوا أخاها البيت وباقي الأرزاق. خالها لم يكن يحب صنعة المطاعم. الدوّار كان يساوي الكثير يومها لكنه ليس بيتاً. الرجل يؤمّن البيت وفؤاد لم يكن يحب البيوت. اكتفى بالغرفتين فوق المطعم وأسكن والده في غرفة

البستان. كانت أمها تدله الى الطابق العلوي وتقول:

- انها غرف لسكن خدم المطعم. تُسكننا يا فؤاد في غرف الصنّاع!

أوصت على طقم كنبات من الخشب المحفور عند المعلم روفائيل. روفائيل بطيء وهي لم تكن مستعجلة، صارت تعطيه دفعات مالية صغيرة توفرها من هنا وهناك حتى انتهى من صنعها بعد سنتين. صار المعلم روفائيل يريدها ان تنقل الكنبات لأنها تشغل عنده مساحة فأودعتها عند بيت أخيها وهي لا تزال هناك. يذكّرون ريّا بها من وقت لآخر ولا تعرف بماذا تجيبهم.

والدها اكتفى بالغرفتين وزوجها أيضاً. معها في حسابها في بنك سوريّا ولبنان سبعة آلاف وثمانمئة دولار، عندها مصاغ بما يقارب الثلاثة آلاف دولار. تتقاسم غلّة المطعم مع محمود وسعيدة، وتشتري لنفسها فستاناً في السنة وحذاء واحدا. اذا لم يطرأ عليها أو على ابنها مرض أو مصروف استثنائي، يمكنها في فصل الصيف وفي أحسن الاحوال توفير ألف أو ألفي دولار. أمضت حياتها في أمكنة مشرّعة. في دورتوار المدرسة، غرفة واحدة ومئة سرير، لا تذكر منها الا البرد وضجيج البنات وأوامر الراهبات، بنات من كل المناطق لا يعدن بعد صف البريفه، يخفين رغبتهن الجامحة في الالتقاء بالشبان. وفي سائر الايام في الدوّار حيث كل الابواب مفتوحة. اذا نعس طفل على يد أمه تحمله الى فوق، تغيّر له الحفاض وينام في سرير ريّا. كذلك الذين يثقلون الشرب فيعجزون عن الوقوف يجدون دشكاً أو أسرّة كافية ليتمددوا، وتحضر لهم القهوة المرّة الى أن يصحوا فيتمكنوا من القيادة. أكثر من زبون لم يتمكن من حمل نفسه الى الحمّام، يفرغ ما

في أمعائه في أرض غرفتها أو غرفة والديها. الدوّار أشبه بالطريق العامة. هي أيضاً لا يمكنها ازعال الزبائن لكنها تدافع قدر الامكان عن الطابق العلوي، تمنع الرجل عنه. حتى رجع موسى بشارة واحتلّه وأجبرها على كرّ خيط حياتها من أوله.

تقدمت حافية الى جانب النهر وهي في قميص النوم وفنجان الشاي في يدها. كانت تعتقد في صغرها أن النهر الذي يسرح في الليل غير الذي يسرح في النهار. الأول هادئ، شعره ممشط ولمّاع والثاني غضوب مشاكس. نادراً ما تشعر بالسكينة مثل الآن لكن عليها العودة الى الغرفة. تخاف أن يستيقظ رامي ولا يجدها.

طالما حلمت ببيت لها ولرامي، بيت مقفل لا أحد يملك مفتاحه غيرها. لا يمرّ فيه أحد ولا تأتي خادمة لتقوم بتنظيفه. تطبخ وتأكل وحدها، هي ورامي. تحضّر ورق العنب قبل يوم، تلفّه بأصابعها على مهل، كلما كان رفيعاً كان أطيب. لن تضع معها شرحات لحم أو فوارغ. لقد شبعت لحماً، لحم الماعز ولحم العجل والدجاج. لن تطبخ في بيتها الا طعاماً قاطعا طوال الاسبوع، ويوم الاحد فقط تطبخ ورق العنب. تتركه يتختّر فوق نار خفيفة منذ الصباح الباكر. يجلس رامي ويربط الفوطة حول عنقه، تقلب الطنجرة في الجاط الكبير فيأكلان ويطعّمان ورق العنب بالتوم والنعناع الاخضر. ينصرف رامي الى دروسه فتجلس هي على أريكة وتتأمل بيتها. تريد أن تصفّفه بيدها قطعة قطعة. ألوان فاقعة حمراء وصفراء لصحون الاكل، ستائر شفافة مخرّمة على شكل أزهار. لا تريد كنبات أمها، لتبق في بيت خالها! لقد جلسوا عليها كل تلك السنين وصارت ملكهم. هي في كل حال لا تحب الخشب، سوف تشتري غرفة صالون منجّدة بالقماش

المحشو بالقطن، مقعد لثلاثة أشخاص ومقعد لشخص واحد فقط، لأنها لا تريد أن تستقبل أحداً، لا تريد أن يأتيها زوار، على الأقل في البداية ولسنة كاملة. سيكون عندها تلفون تضعه في زاوية الصالون فوق طاولة صغيرة مغطاة بشرشف مشغول بالابرة، ولن تعطي رقمه لأحد. فقط لادارة المدرسة في حال أرادوا ابلاغها أمراً يتعلق برامي. ربما هي أيضاً لن تتصل بأحد لكنها تريد أن يكون لديها تلفون. ولن يكون عندها منافض لأنها ستتوقّف عن التدخين ولن تسمح لأي كان باشعال سيجارة في بيتها. لا تريد رؤية البلاط العاري، ستفرش البيت كله سجاداً، عجمياً أو ألمانياً لا فرق. حتى في الممرات الصغيرة بين الغرف ستمدّ قطع سجاد صغيرة. لن ترفعها في الربيع والصيف واذا أخرجتها الى الشرفة ونفضتها لكي تزيل عنها الغبار فأنها ستعيدها الى أمكنتها ولن تلفها وتسندها الى الحيطان. سيظل بيتها مفروشاً طوال السنة. حتى لو غابت عنه يوماً أو يومين فانها ستبقي على بعض الأنوار مضاءة. وفي الليل عندما يخلدان الى النوم ستترك مصباحاً زهري اللون مضاء في غرفة الجلوس. ستستحمّ كل يوم وتقلّم أظافرها وتسرّح شعرها. ستكون دائماً مستعدة للخروج ولو أنها لن تلبي أية دعوة. سيكون بيتها مليئاً بالاغراض، نباتات طبيعية في كل الزوايا، صور على الحيطان، صورة رامي بثياب ملاك ومناظر تمثل غابات وبحيرات، وسيكون عندها مقرّنات ومخدّات، ومنها واحدة مطرزة عندما تتعب من شغل البيت تمدد رجليها فوقها وتستريح...

كانت على وشك الاغفاء حين رنّ جرس الهاتف في المطبخ. تململ رامي في سريره. كانت ردة فعلها الاولى أن تضيء اللمبة وتنظر الى الساعة لكنها تذكرت الليلة التي

سبقت غرق موسى فقفزت من السرير وهرولت الى الطابق الأرضي. صوت المرأة عميق ويصل متأخراً، وما ان تكلمت ريّا حتى تصادم صوتاهما وبقيتا على هذه الحال دقيقة وأكثر، لا تميّز الواحدة ما تقول الأخرى الى أن انتبهت ريّا ان عليها التمهّل قليلاً قبل الاجابة. وسرعان ما أدركت أن المتحدثة في الطرف الآخر تحاول طوال الوقت الذي كانت يشتبك فيه صوتاهما التعريف بنفسها وتكرر اسمها، وقد فهمت ريّا اسمها الاول، اليزابيت، والتبس عليها اسم عائلتها بين هارلي وهادلي. سألتها ريّا مع من تريد أن تتكلم، فأجابتها أنها زوجة موسى بشارة السابقة. كادت ريّا ترد سماعة التلفون الى مكانها لكن شيئاً في صوت المرأة أثار فضولها. كأن الاميركية احست أيضاً بما يجول في خاطر ريّا فطلبت منها أن لا تقفل الخط، قالتها بطريقة غريبة بالانكليزية Please, don't go away عرفت أن ريّا تريد الفرار. أضافت أنها تعتذر لأنها تتصل في هذا الوقت وهي لا تعرف إن كان الوقت نهاراً أو ليلاً إذ إنها تجهل أين يقع لبنان تماماً على الخريطة. تحكي على مهل وتستعمل كلمات سهلة كأنها تعرف أنها تتوجه الى شخص مبتدئ بالانكليزية، لهجتها انكليزية تامة، تصورت ريّا أن صاحبتها لا يمكن إلا أن تكون شابة شقراء على وجنتيها وأنفها قليل من النمش، قصيرة الشعر، جميلة ومتناسقة الملامح. لم تتخيل قبل ذلك زوجة موسى السابقة الا شمطاء سيئة الفعال وها هي الآن تشعر بشيء من التضامن معها. سألتها هل صحيح أن موسى قد مات، فردّت ريّا بالايجاب وساد صمت طويل ربما لأن الاميركية تنتظر كلاماً من ريّا وريّا لا تعرف عبارات التعزية بالانكليزية. أخيراً وجدت المرأة ما تقوله فسألتها عن ظروف موته فاعتذرت ريّا منها وقالت إنها لا

تعرف الانكليزية جيداً لتشرح لها. قاطعتها لتسألها اذا كانت هي ريّا وأضافت أن موسى كان يتحدث عنها وعن شعرها الطويل. وفجأة انقطع الخط وبقيت ريّا ثواني طويلة رافعة السماعة بالقرب من أذنها تستمع الى صوتها المتقطع قبل أن تعيدها الى مكانها. انتظرت واقفة الى جانب التلفون عساه يرنّ من جديد. تريد ان تسألها ما اسم ابنتها التي يقول دانيال انها ليست ابنة موسى كما تودّ أن تعرف من أعطاها رقم تلفون الدوّار.

لن يفيدها الا دانيال، عساه يأتي غداً. ضوء الغد يكاد يطلع. صعدت لتنام. رامي أوقع لحافه أرضاً. يطالبها كل يوم بتمثال بيتهوفن. يوم حار على غير عادة، لم يقبل رامي ارتداء البيجاما الشتوية. وحدهم يبردون حتى في عزّ الصيف.

انتظرت دانيال فجاء الأب جبرايل. عيّنوه رئيساً للدير السنة الماضية. جاء يسألها هل لديها خادم سفرة يمكنها إعارتهم إيّاه يوماً واحداً لأن الدير يستضيف اجتماعا للرهبان من جميع المناطق. فأجابته أن ليس لديها سوى محمود إذا أراد الاستعانة به. فاجأه الاسم. محمود؟ ابتسمت ريّا ونسي الأب جبرايل الموضوع. هو أيضاً راهب مزارع، عملاق لحيته سوداء، تلمحه ريّا أحياناً يرشّ عرائش الدير حاملاً المضخّة على ظهره. يدهُشُم خضراء الرهبان، لا يزرعون صنفاً إلا يعطي ثمراً نخباً وغلة مضاعفة. أكلُ الدير طيب لكن عين مار سمعان ضيقة، أرزاقه محاطة من كل الجهات بشجر الصبّير المليء بالاشواك.

لا يزال الوقت باكراً. لم تصل سعيدة، ولا محمود. رامي يجلس على الحافة يطعم البطتين. لم يبق غيرهما من العشرات اللواتي كنّ يسرحن هنا. في فصل الشتاء تدخلان الى الطاحون وفي الصيف عندما تشحّ المياه يقيمون لهما سداً صغيراً، لم يجد محمود في نفسه النخوة الكافية لاقامته هذه

السنة، منذ غرق موسى لم ينزل مرة واحدة الى النهر.

لم تعرف ماذا تقول للراهب، انه شاب وجديد هنا، عيّنوه بعد ما شاخ أبونا بطرس ونقلوه الى بيت الراحة. دعته الى الجلوس وتناول القهوة فشكرها وبقي واقفاً لكنه لم يغادر. لا يليق به الجلوس في المقاهي، ينتعل صندلاً تبين أصابعه الغليظة من بين فراغاته.

تعتقد أن موظف شركة التأمين غدرها. كان يعرف أنها المستفيدة من بوليصة تأمين موسى وهي لا تعرف. سينقل الى الشركة كلاماً يضرّ بها. كيف عرفوا قبلها؟ لا يبدو أنهم سيتساهلون معها في الحصول على المال.

رامي يطعم البطتين خبزاً وجزراً، تأكلان الخبز وتسعيان وراء قطع الجزر وفي كل مرة تصلان اليها وتهملانها. يسعى رامي لامتحانهما إذا كانتا تخطئان مرة وتأكلان الجزر. انهما هزيلتان ومتسختان، تعتقد ريّا أنهما لن تعيشا الى السنة المقبلة.

أخبرها أنه يعدّ كتاباً عن تاريخ دير مار سمعان والمنطقة. سألها هل كان عندها من أهلها حجج أو أوراق قديمة تفيده. وجد في محفوظات الدير وثيقة بالسريانية تؤكد أن مار سمعان قائم فوق انقاض دير كان يسمى مار يعقوب، بناه دعاة الطبيعة الواحدة وهدمه الموارنة في القرن الخامس عشر بعدما شرّدوا ساكنيه.

انتهت مؤونة رامي من الخبز والجزر فتوجه نحو المطبخ. سرحت البطتان في اتجاه قنطرة الطاحون. كانت الواحدة تغطّس رأسها في الماء ثم ترفعه وتهزّه فتتطاير القطرات العالقة في ريشها وما إن تنتهي حتى تغطّس الثانية رأسها. مرّ بجانبهما كيس من البلاستيك الازرق فنقرتاه الواحدة تلو الاخرى ثم انصرفتا عنه.

اذا كان كاتب العدل يعتبر نفسه كالكاهن في سرّ الاعتراف لا يبقى سوى دانيال ليخبر شركة التأمين. لا تعرف وربما لن تعرف أبداً هل دانيال معها أو ضدها. لن تستسلم. قريباً تذهب الى بيروت، الى مكاتب شركة التأمين الاميركية. عليها المراجعة والمطالبة. لا بد أنها ستجد هناك موظفاً يساعدها. تعده بمكافأة كبيرة في حال أوصلها الى نتيجة. ليست مستعجلة. سألت كاتب العدل هل هنالك مهلة زمنية محددة فقال لا.

أدخل الأب جبرايل يديه في أكمام جبّته. انه تعوّد الوقوف. قال إننا نبذّر من دون إدراك ما جمعه لنا أجدادنا بالكدّ والعرق والدم. لن تقوم لنا قائمة بعد اليوم. لم يكن يبدو على وجهه أي اسى مما يتوقعه، لا بل كان في نظراته حماسة لرأيه، واعتداد بنفسه لأنه يقول حقيقة لا يجرؤ غيره على قولها.

عاد رامي من المطبخ وقد حمل في يده كمشة لوز أخضر وقليلاً من الملح في اليد الأخرى. جلس على الكرسي نفسه من جديد، وضع حبّات اللوز على الطاولة، أخذ حبّة وقضمها قليلاً ثم غطّها في الملح الذي أبقاه في يده اليسرى، أكل نصفها ورفع يده عالياً ورمى النصف الآخر بعيداً في اتّجاه الطرف الآخر من النهر، صوب الطاحون، لكي يلفت انتباه البطتين.

قال إن الناس في بلدنا لم يعملوا يوماً معاً. التفت نحو الجبال وأشار بيده وأضاف:

- كل قرية دولة مستقلة. لا يحبون الجمع، يمشون فرادى.

ثم أردف بصوت هامس وكأنه يكلّم نفسه:

- حتى الرهبان كل واحد يا رب نفسي، استري علينا يا

ابنتي.
اقتربت البطتان مجدداً. مرّ أمامهما كيس آخر من البلاستيك، من صنف الأكياس التي يحملها الزبائن الخارجون من محال بيع الأحذية، لحقت به قليلاً البطة الاولى ولما أحسّت أن رفيقتها لم تكترث استدارت وعادت لتنضمّ إليها.
سكت الأب جبرايل، سحب يديه من أكمامه وتطلع صوب الماء. كأنه تذكّر أمراً فالتفت الى ريّا وقال:
- مسكين الاستاذ موسى، انه فنان عظيم. كان يمر كل صباح أمام الدير في طريقه الى النزهة فيلقي عليّ التحية، وقد سألني مرة أو مرتين عن الآباتي سعد، صديقه القديم. كما توقف مرة وسألني إذا كانت الاسلحة التي تركها الفرنسيون لاتزال محفوظة في الدير. مسكين، ضيعانه.
وأضاف:
- رأيته صبيحة يوم موته عائداً من مشواره، لم يرني. كان يسرع الخطى بطريقة غير اعتيادية.
ثم أخبرها وهو يهمّ بمغادرة المطعم:
- تعرفين حائط الدير الذي كان يكتب فوقه أبناء الجوار عشية سفرهم الى بلاد الله الواسعة أسماءهم واسم الدولة التي يهاجرون اليها. بطلت العادة منذ سنوات لكننا لم نعد طلاء الحائط، ومنذ فترة رأيت عليه كتابة جديدة الى جانب اسم الاستاذ موسى، فأحدهم زاد بعد الجملة القديمة غادر موسى بشاره لبنان الى نيويورك في آخر سنة ١٩٦٣ عبارة ورجع في ربيع ١٩٩٢ ليمتزج بتراب بلاده الى الابد والمقطع المضاف مكتوب بخط مختلف عن الاول.
- هل رأيت هذه العبارة قبل موته؟

- نعم.

رامي يأكل نصف حبة اللوز ويرمي النصف الآخر الى البطتين. بعد محاولات عدة توقفتا حتى عن الالتفات عندما تسمعان وقع حبة اللوز في الماء. بعد قليل سرحتا مستسلمتين للتيار حتى وصلتا الى ما بقي واقفاً من حجارة سدّ السنة الماضية.

كانت ريّا تحاول مرة أخرى ترتيب مسألة الساعة. من كان عارفاً بتقديمها؟ هي لم تكن عارفة ورغم ذلك استفاقت وفق التوقيت الجديد، اوتوكار المدرسة مرّ وفق هذا التوقيت، لكنها لا تعرف هل قدّم موسى ساعته ام لا. لن تفهم ما حصل الا اذا رسمته على ورقة.

سمعت محمود يطبطب وهو يدخل للمرة الثانية الى المطبخ ثم ينقل طلبات الزبائن بانزعاج واضح:

– نصيّة غنطوس وأبو رعد، تبّولة، حمّص، بابا غنّوج، لبنة وصحن بطاطا. الخواجات سيطلبون الأكل لاحقاً لأن جلستهم طويلة.

التفتت ريّا فرأت محمود يتجه الى الخزانة ويُخرج كيس التنباك. تشوشت سعيدة من لهجة محمود فأنزلت نصيّة العرق وقالت له:

– اذا مرت شاحنة غنطوس وابو رعد اطلب منه صندوقا.

فتوجّه محمود الى ريّا قائلاً بلهجة هادئة فجاة:

– لقد مرّ شحن الألمازه وأنزل صندوقين ولم يكن معي ما

يكفي لأحاسبه فسجّلها عنده.

وقفت ريّا وتوجّهت نحو الباب لكي تستطلع هوية الزبائن الذين يضايقون بوجودهم محموداً. انهم ثلاثة رجال بينهم واحد ضخم الجثة يشبك يديه على كرشه البارز وهو يضرب ابهاميه احداهما بالاخرى ويحكي. الآخران يدخنان. فيهم شيء واحد غريب، فزبائن الدوّار وسائر المطاعم عندما يجلسون ويطلبون العرق والمازة والنارجيلة تكون قسماتهم مرتاحة، وحركاتهم مرتخية، يتركون أنفسهم لايقاع الماء والمكان، أما هؤلاء فكأنهم مستمرون في عملهم يتكلمون بعصبية وإذا سكت واحد منهم يكون كأنه يمعن التفكير في مسألة محدّدة يفتش لها عن جواب سريع. طلبت سعيدة من محمود أن يحمل اليهم العرق والثلج والفستق، فتمنّع قائلاً أنه سينقل لهم طلبهم كاملاً عندما يجهز.

- سأقول لهم أن ليس لدينا تنبك لأنهم إذا نادوني من أجل تغيير النارة فلن أخرج!

ضاقت ريّا ذرعاً بمحمود فسألته:

- من هم هؤلاء الرجال؟

- ألم تعرفيهم؟

- ومن أين لي أن أعرفهم؟

- أنظري جيداً الى صاحب الشعر الاسود المجعّد اللابس قميصاً أخضر وتذكّري من أين تعرفينه.

صعد رامي الى غرفته وتحركت سعيدة قليلاً في اتّجاه الباب علّها تساهم في فكّ اللغز. تطلّعت ريّا الى صاحب الشعر المجعّد. إنه من عصابة جان. كان قليل الكلام ودائم الابتسام. كلما وقعت عينه على عينها يبتسم لها. ابتسامة المعتذر لأنه يلعب أو لأنه يربح أو لأنه يسهر حتى الصباح

عندها رغم إرادتها. وها هو الآن يبتسم وهو يرمي عقب سيجارته في النهر.

لم تكن ذكرى أربعين والديها قد انقضت لما جاء بهم. لعبوا مرة ثم غابوا يومين وبعدها صاروا يجتمعون كل يوم. كانت الدنيا واقعة عليها فتونّست بهم. في الأسبوع الأول كانت تحضّر لهم القهوة، تقدّم لهم الفاكهة وتفرغ منافض السجائر. يحدّدون جلسة من ساعتين تنتهي بسرعة فيجدّدون ساعة تلو ساعة ثم نصف ساعة. في كل ليلة يفتحون ورقاً جديداً. كانت متأكدة أن جان يخسر دائماً ولو أنه ينكر ذلك، تعتقد أنهم متآمرون عليه لأنهم يأتون الى الدوّار في سيارة واحدة. محمود أيضاً متأكد من ذلك مع أنه لا يعرف لعبة البوكر. رآهم مرات عدة يتغامزون. امتنعت ربّا عن استقبالهم وصارت تسرع الى الطابق العلوي عند وصولهم ولا ترمي عليهم حتى السلام ولا تجيبهم اذا ألقوا التحية، طلب جان من محمود السهر معهم وصاروا يسخون عليه وهو يخدمهم. لكن جان استدان منه ذات يوم مبلغاً كبيراً من المال وخسره وأكله عليه.

يلعبون في الليل، اما في النهار فيخبرون الآخرين أو يستعيدون في ما بينهم ضروب الأمسية. ربما هذا ما يفعله هؤلاء الثلاثة الآن. الاثنان الآخران، السمين وصاحب الطقم وربطة العنق السوداء لا تعرفهما. كل هذا الانفعال والتشوير لا بد أنه استرجاع لمعارك البوكر: فتّوا الورق مستوراً، الاول خبّط، أنا معي ثلاث بنات وعشرة وثمانية، لم أفتح، الثالث فتح المزاد بخمسة آلاف، كان معه زوجان أص - سبعات، دخلنا جميعا باستثناء الموزّع، طلبت ورقتين فأعطاني شايين، طلب الفاتح ورقة واحدة وضرب بصولده من دون أن ينظر

اليها. صار هنالك على الطاولة ثلاثمئة ألف ليرة... كل أخبارهم مفادها أن الحظ يخونهم في اللحظة الحاسمة، لا يروون سوى هزائمهم التي لم يكن لهم منها مفرّ. فلاعب البوكر العتيق اذا سألته وكان متعادلاً يقول إنه خسر واذا ربح يدّعي أنه خرج متعادلاً.

حمل محمود الصينية ولما مرّ بجانبها توقف قليلاً.

- ضاعفي عليهم الحساب، كل أموالهم حرام.

بدأ محمود يعطف عليها منذ تلك الايام، لم يبق غيره الى جانبها. بيت خالها لم يكونوا يوماً سنداً لها، لديهم عتب قديم لأن الدوّار كان من حصة أمها، كانوا يتصوّرونه مزراب ذهب. أنزل محمود الصحون على الطاولة، انتبه الرجل المجعّد الشعر أن ريّا تراقبهم فعاودته ابتسامة الاعتذار نفسها. أخرج السمين من جيب سترته جريدة بسطها أمامه ثم سحب قلماً من جيب قميصه وصار يعلّم عليها ورفيقاه يساعدانه وهما يدلاّن بأصابعهما. رمى أحدهم شيئاً الى توتسي. دخلت ريّا الى المطبخ ولما رجع محمود قال انهم نقلوا نشاطهم الآن الى مراهنات سباق الخيل.

- البغل السمين يطلب صحن كبّة نيّة. ويشترط أن تكون اللحمة لحمة ماعز وطازجة.

وقفت سعيدة وقالت بلهجة ساخرة وهي متجهة نحو البرّاد:

- تكرم عينه، ألم يطلب أيضاً أن ندقّها له في الجرن؟

فجأة ظهر أمام باب المطبخ الرجل الثالث صاحب الطقم وربطة العنق السوداء. إنه قصير القامة نحيل الجسم. كان متوجّهاً الى الحمّام وعند مروره أمام باب المطبخ توقّف قليلاً وألقى نظرة متفحّصة الى الداخل. يمشي على مهل كالمتحكّم

أمام واجهات المحال، ولم يكن في حشريّته أي إيحاء الى أنه متوجّه لقضاء حاجة ملحّة. انقبض قلب ريّا لكنها اطمأنّت قليلاً لأنها جالسة تجاه الباب الوحيد المؤدّي الى الطابق العلوي، الى غرفتها هي ورامي.

تزوّجا في كنيسة مار ضومط. أحبّت أمها أن تُلبسها فستان عرسها الذي احتفظت به فرفض قائلا أن من واجبه هو تقديم الفستان. كان فستاناً جميلاً، تبيّن في ما بعد أنه استأجره فلمّا عادا من شهر العسل لم تجده. سألته فقال انه لا يعرف عنه شيئاً، ولما قالوا له إن رجلاً حضر الى الدوّار وطلب استرجاع الفستان أنكر وتلعثم وشتم شخصا يدعى موريس مدّعياً أنه خدعه. لم تر الشقة التي تحدثا عن شرائها مئة مرة قبل زواجهما. أخذها مرة اليها، أوقفها عند مدخل البناية وصعد السلالم وحده ثم عاد بسرعة وقال إن صاحب البناية غائب ومفاتيح الشقق معه. فأقاما عند أهلها، يناما في الغرفة الملاصقة لغرفة أبيها وأمها في انتظار حصوله على القرض الذي كان طلبه من البنك. كان يتاجر بالملبوسات، دائم الرحلات، يحكي بالأموال والأرقام الكبيرة ولا تلمس نتيجة. أنزل مرة حمولة شاحنة صغيرة وضعها في غرفة جدها خليل. قال إنها تجرة غير مهمة فتبيّن أنها مجرد ثياب مستعملة. تعتقد ربّا أنه كان ينسى دفتر الشيكات على الطاولة

في غرفتهما عمداً لكي تراه. بقيت في بيت أهلها، تأكل عندهم. كانا سعيدين بوجودها وهي تنتظر قرض البنك حتى بدأت الحرب. سألته ألف مرة وفي كل مرة كان عنده جواب، أجوبة من نوع بعد غد أقابل المدير، لقد أجّلو بتّ موضوع القروض الى السنة الجديدة، بعد شهر، لأن الموظفين منهمكون في إنهاء موازنة العام المنصرم أو لقد أعدّوا السندات والتأخير مني لأني نسيت الاتصال بعبد الله الأشقر ليوقّع معي. حتى لما توالت الاحداث والانفجارات واشتعلت بيروت لم يُفقدها الامل. البنوك خائفة تتردّد في تسليف الناس - لماذا يحكي عن البنوك بالجمع - لكن الحوادث ستتوقف قريباً وتعود الدنيا الى حالها. انها لعبة أميركية. تتساءل ربّا أحياناً من أين يأتي بكل تلك الطاقة للاستمرار في إيهام الآخرين بالمشاريع التي يورّطهم فيها. أحبّته في البداية رغم أنه كان يكذب... أحسّت معه في تلك المرحلة أن الدنيا زاخرة بالاحتمالات، أنهما إذا استجابا للفرص تتحوّل حياتهما سلسلة من الأشغال والانتظارات ورحلات التجارة والإقامة في الفنادق الفاخرة واستغلال هبوط الأسعار والتزلج على الثلج والتنزّه على ضفاف البحيرات. كانت الحياة مفتوحة لا تعرف في أي اتجاه ستقودها. لكنها بقيت في الدوّار. وجاءت الحرب، خربت مشاريعه فضاقت به الدنيا. لا يستطيع الحراك ولا السفر والسوق واقفة. صار يتضجّر ويدخّن السيجارة تلو السيجارة، يضغط على أعقابها برؤوس أصابعه ويقذفها بعيداً.

وبدأ يطيل السهر، يسرّب في الثالثة صباحاً أو حتى عند طلوع الضوء.

- أريد أن أتسلى، رأسي سينفجر.

كان يتذرّع بالحوادث والقتل على الهوية وقصف المدافع.
في تلك الايام بدأت تدخن وتشرب القهوة. يمازحها أحياناً إذا استيقظت عند قدومه، تقول في نفسها إنه ربح الليلة، تسأله فينكر. جاء بهم فملأوا الدنيا دخاناً. هذا المبتسم لا تعرف اسمه، وأحدهم يسمّونه تارة الأسمر وطوراً أبو سامية يطلق الشتائم في كل مناسبة وإذا انتبه لوجود ريّا يعتذر وبعد دقائق يسبّ الرب والقديسين اذا ماتت ورقته. هؤلاء كانوا ثابتين ويشاركهم آخرون. يدعون أحياناً شخصاً مقرشاً لا يحسن اللعب بحسب رأيهم، فيقشّ أموالهم رغم غبائه. يستفولون من كل شيء، إذا خسر أحدهم يغيّر كرسيه أو ينزع عنه سترته أو يلبس قبعته. يتبادلون العتب، فهذا يده ناشفة وهذا إذا أعطى ورقاً رابحاً ينتظر ردّ الجميل. يعجزون عن التوقّف. حين يشبعون من البوكر يفتحون أمامهم طاولة الزهر، يضعون الاحجار جانباً ويبدأون برمي الزهر. تسمع كل شيء من فوق، من فراشها حيث لا يأتيها النوم الا نادراً. يبدّلون الفيش ويراهنون بالمال نقداً. لعبة حظ مئة في المئة، لا مجال فيها للغش أو التواطؤ. يضربون الزهر، يربحون من يدهم أو يخسرون من يدهم. انها لعبتهم الحقيقية، الموت السريع. باقي ألعاب الورق ليست سوى مقبلات.

انتبهت تلك الليلة الى مصاغ أمها. نهضت كأن حية لسعتها. الساعة تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل. فتحت جزدانها، أخذت مفتاح الدرج وفتحته. أربعة مباريم وسلسلتان وخاتم وبروش أقفلت عليهن هنا. اختفت، سرقها. صرخت كالمجنونة:

– جان!!

ساد الصمت في الطابق الارضي. صعد بسرعة إليها.

- أين صيغة أمي؟

تجاهل معرفته بوجودها. حلف بروح أبيه، انه حلفانه المفضل. سكتت. نزل وطلب منهم الانصراف، لكنها بسرعة البرق جمعت ثيابه في الحقيبة الكبيرة بدون ترتيب ووضعت معها كل ما يخصه والعقد والخاتم اللذين اهداها اياهما وصور العرس، وأفرغت فوقها محتوى الدُرج الذي يضع فيه أوراقه وأقفلت الحقيبة بصعوبة. تعرف تماماً ما لها وما له، تخيّلت نفسها مراراً تقوم بذلك فسهل عليها الأمر. جرّت الحقيبة وانزلتها على الدرج. كانوا يهمّون بالمغادرة.

- هذه أغراضك، مع السلامة. لا تضع رجلك هنا بعد اليوم!

أخذوه معهم ولم يعد. بعد أسبوع قطعتها العادة الشهرية. استقامت برامي.

نادوا على محمود وصرخ السمين من دون أن يلتفت الى الوراء:

- الحساب من فضلك!

في نبرة صوته طيبةٌ هي هي عند كل بديني الجثة. لو تستطيع استرجاع حياتها لأحبّت رجلاً ضخماً تضع رأسها على كتفه وتنام. رجع محمود وقال:

- يلاّ، مال حرام!

ففهمت ريّا وسعيدة أنهم أعطوه بخشيشاً كبيراً. تابعتهم بنظراتها حتى السيارة التي جاؤوا بها. رافقتهم توتسي فدعاها المبتسم بإشارة من يده الى ركوب السيارة والذهاب معهم ثم نظر في اتجاه المطبخ ليرى وقع دعابته على ريّا. بقي القصير صاحب ربطة العنق السوداء يسترقّ النظر صوب المطعم حتى صعد الى السيارة بجانب السائق السمين بينما جلس المبتسم

صاحب القميص الاخضر في المقعد الخلفي، جلس في الوسط وقرّب جسمه وشدّ يديه على المقعدين الاماميين ليكون قريباً من شريكيه فيكملون حديثهم وهم منطلقون في السيارة.

ما إن اختفت سيارتهم بعد الجسر حتى شعرت ريّا بحاجة ملحّة لتفقّد رامي. ناداها محمود لكي تستلم حساب الطاولة فطلبت منه أن ينتظر قليلاً. صعدت الى الغرفة. لم تسمع حسّه من على الدرج فخفق قلبها. كان الباب مفتوحاً ورامي يقرأ استريكس وهو مستلقٍ على ظهره ويرفع الكتاب مفتوحا بكلتا بيديه الى الأعلى.

أخيراً جاء المخفر. كلّه. الضابط والرقيب وعنصران. الشاب نفسه الذي أبلغها عن غرق موسى يقود الجيب. كان الضجر بادياً على وجوههم. تشعر معهم بالأمان، لا يلجأون الى القسوة إلا عندما تسقط عليهم أوامر صريحة إذا خالفوها تعرّضوا للعقاب من رؤسائهم. وهم في كل حال ليسوا قادرين على المواجهة وحدهم، فغالباً ما يلقون مساندة من الجيش عند مطاردة فارّين من وجه العدالة أو عندما يتوجّهون الى الجرد لاخماد أعمال الثأر والاشتباكات العائلية، فيرافقون أفراد الجيش، لكن بزّاتهم الزرقاء تميّزهم عنهم فيعتمرون الخوذ الحديد ويقطّبون وجوههم المألوفة من المارة سعياً منهم الى التشبّه بوجوه أفراد الجيش العابسين والقادمين من مناطق بعيدة. دركي واحد يجلس فوق الدبابة الى جانب طاقمها من الجنود المرتدين الأخضر. كذلك في الشاحنات والجيبات، ربما ليدلّهم على الطرق ويعرّفهم على الناس، لكنه لا بدّ ان يغضّ النظر عن هذا أو عن ذاك تخفيفاً للأذى عن هؤلاء الذين ما إن ترجع فرقة الجيش الى ثكنتها حتى يعود الى الاختلاط بهم. الدرك فقدوا هيبتهم من زمان، من الاساس يعرفونهم في

الدوّار بأسمائهم الصغرى.

لا يمكن تمييز الضابط عن النفر، جلسوا حول طاولة مع بعضهم البعض وطلبوا ركوة قهوة. لما رآهم رامي تمسّك بها، بفستانها، صار يضع رأسه في بطنها ويشد وهو يهمهم. استيقظ مطالباً بكرة سلة حمراء أصلية فرفضت ريّا لأنها غالية الثمن، لكنه لا يفهم، إما ان تجد له التمثال وإما تشتري له بالوناً. لم ينفع معه النصح والتنبيه الى أنه صار كبيراً وأنه اذا ما عرف الناس كيف ينام سيسخرون منه. أطلعها الضابط على تقرير الطبيب الشرعي ورامي ممسك بها ينطحها في بطنها حتى ان الضابط حاول استعمال سطوته لاراحتها قليلاً منه فلم ينجح. يقول الطبيب، كما قرأ الضابط من دون أن تكون قريبة منه كفاية للتأكد مما يقرأه، أن سبب الوفاة عائد الى انقطاع التنفس بسبب ابتلاع الماء والغرق وان لا مؤشرات تستوجب طلب تشريح الجثة باستثناء كدمة في فروة الرأس فوق الاذن ناتجة على الارجح من اصطدام الرأس بأحجار قعر النهر عند السقوط. أخبرها أن تقرير الطبيب الشرعي تأخّر وصوله الى قاضي التحقيق أيام عدّة، فالفوضى كما قال ضاربة أطنابها في السرايا، وفي النهاية يتفقون على رمي المسؤولية على المخفر.

نزعا جزمتيهما وجواربهما ثم شمّرا عن ساقيهما ونزلا في الماء. كالعادة، الدعسة الاولى هي الأصعب. تسلّى رامي عنها لما رآهما يتقدمان بصعوبة بسبب الحجار المتكاثرة في قعر الماء. محمود أكثر رشاقة عندما يمشي فيه. طلب الضابط منهما أن يفترقا، واحداً صعوداً والثاني نزولا لكي ينهي كشفه ويريح ضميره. بعد قليل طلب من الرقيب الحويك فتح دفتر التقارير.

«بعد الانتقال الى مكان وقوع الحادث وإجراء التحريّات اللازمة،

وبعد الاستماع الى بعض المواطنين، تبين لنا أن المدعو موسى حليم بشاره وهو مغترب في الولايات المتحدة قد اختار للاقامة في لبنان مطعماً فوق النهر في محلة الدوار قرب دير مار سمعان التابع للرهبنة الانطونية، والمكان منعزل وهادئ يناسب تأملاته الفنية، وقد أصبح في آخر أيامه عاجزاً عن الرسم لكنه شوهد مرات عديدة يحاول تصوير منظر الماء الرقراق والطاحونة الأثرية وأشجار الحور. ولا يوجد في المطعم سوى امرأة مطلّقة في الأربعين من عمرها تدعى ريّا فؤاد أبوخطار تقيم فيه مع ابنها صغير منذ لقي والداها مصرعهما في مستهل الاحداث الاليمة التي عصفت بلبنان. ويعمل لديها كل من محمود عثمان مواليد تكريت وسعيدة نهرا مواليد علماتا. وقد أجمع الشهود على ان موسى بشارة خرج في نزهته الصباحية ولم يعد، كما تبين انه لم يكن لديه اي عداوات شخصية أو عائلية خصوصاً أنه غادر لبنان عام ١٩٦٢، رغم انقطاع الصلة بينه وبين أبناء عمه وانعدام المراسلة والتخاطب في ما بينهم فليس له معهم اية املاك مشتركة أو نزاعات من أي نوع. أما المدعوة ريّا فكانت تعامله بكل احترام وقد أسكنته في غرفة مستقلة في الطابق العلوي، وأمضى معها ومع ابنها في آخر أيامه حياة عائلية هانئة طالما افتقدها في سنوات هجرته الطويلة. وقد قمنا بالكشف اللازم في مكان وقوع الحادث ولم نعثر على ما يسترعي الانتباه...».

ثم التفت إليها الضابط.

– هل تودّين رفع دعوى ضد أحد؟

– كلا.

طلبت ريّا من محمود تقديم البيرة الى الضابط والعسكريين وهي تتابع بنظرها الدركي الذي توجه نزولاً، وفي اللحظة التي ناداهما فيها الضابط آمراً بالخروج من النهر، انحنى الدركي فوق الماء وهمّ بتناول شيء ما. اعتقدت ريّا أنه وجد احد الفرنكات التي كان يرميها سالم الشحاذ في الماء وإذا به يتشل تمثال بيتهوفن. ارتعدت وضربتها الدوخة بقوة كادت توقعها، فأسندت يدها الى إحدى الطاولات. ما إن تمالكت

نفسها حتى توجهت نحو الضابط وهي لا تزال تراقب العسكري الواقف في الماء.

- أنا لست مطلّقة.

- هكذا اعتقدت. أو هكذا قيل لي.

ابتسم الضابط معتذراً. التقط الدركي التمثال، تفحّصه وصار يمشي وهو يخفيه وراء ظهره. طوى الرقيب الحويك دفتر التقارير. مشى الجميع في اتجاه الجيب. واحد منهم فقط لم يمسّ قنينته، لا يشرب البيرة. عاد رامي الى الصراخ، وضعت يدها على فمه فعضّها. صرخت وضربته. انطلق الجيب وابتعد.

- سيأخذونك الى الحبس لو استمررت في الصراخ.

ابتعد رامي ومشى نحو باب المطبخ وهو يتمتم متوعداً. لم يتنبه احد الى التمثال في يد الدركي. حتى رامي لم يره. سيعطيه الدركي لأولاده يلعبون به.

التفتت المرأة التي تحمل حيّال توت تقود به حماراً محملاً الحشيش المتدلي على جانبيه. انها من عرب الضواحي ولا بدّ انها نسيت من زمان أنها امرأة. متلحفة من رأسها الى قدميها في هذا الطقس الحار. توقفت لحظة عند سماعها صرخة رامي. توقف الحمار بدوره. لم تر شيئاً يحدث، ضربت الحمار بقضيب التوت ضربة خفيفة فمشى ولحقت به وهي ترتب المنديل الذي تربط به شعرها.

مددت رجليها تحت الطاولة وأرخت جسمها على الكرسي حتى بات في خط مستقيم مع رجليها وشبكت يديها في حضنها. كانت أشجار الدلب وقسم من السماء الزرقاء تتموج في الماء. الهواء يداعب أغصان شجرة الصفصاف المستحي القائمة وسط النهر فوق صخرة مربعة. إنها الجزيرة الوحيدة التي تعرفها، ولما قرأت حكاية روبنسون كروزوه عجبت كيف تكون الجزر بعيدة هكذا. طارت البطة قليلاً من على حافة مرتفعة بجانب الطاحون، صفقت بجناحيها وحطّت في الماء. أغمضت ريّا عينيها، حاولت الاسترخاء وكالعادة أجفلت وأصلحت جلستها. تخاف الخدر الذي يدبّ في رأسها، لا تستطيع أن تغفل عن نفسها فهي لا تخشى الغفوة إذا ما استرخت، إنها تخاف التلاشي، تخاف الغياب. تتصوّر أن الخدر في رأسها هو أول عوارض اصابتها بهذا التلاشي الذي سيمتد شيئاً فشيئاً الى كل جسمها. تشعر به أحياناً في كتفها أو في يدها كأنه يستكشف الأمكنة المناسبة لتقدمه. كل شيء هادئ، رامي يعبث على الأرجح بشيء ما في المطبخ أو في

الغرفة. نادت محمود:

- أين رامي؟

منذ مجيء رفاق جان الثلاثة وهي تريد أن يكون رامي تحت نظرها طوال الوقت. سعيدة غابت اليوم، لا تعرف ريّا لماذا ولا تريد أن تعرف. إذا جاء زبائن ستحضّر هي الكبة. لماذا لا تتوقف سعيدة عن العمل؟ محمود رجل والرجل خفيف الوطأة...

كان والدها يجلس الى الطاولة التالية في الاتجاه المعاكس للوضع الذي تجلس فيه ريّا الآن، يدير ظهره للمدخل ولدير مار سمعان، أمامه أفق الخضرة الكثيف، عيناه جامدتان فارغتان. مع السنين صارت قسماته تغور وبشرته تبيضّ وتبيضّ. لم تره يوماً كيف يلفّ سجائره ولم تكن تميّزها عن السجائر العادية، اللاكي سترايك، التي يدخّنها. وحدها الرائحة مختلفة، قريبة من رائحة البخور، كذلك تباطؤه في تدخينها والامساك بها، لا يضعها فوق حرف المنفضة ويترك رمادها يسقط وحده كأنها ثمينة وعطوبة. وكان كلما أخذ سحبة منها جال بعينيه يميناً وشمالاً من دون أن يحرّك رأسه، يتأكد أن لا أحد يراقبه كي يتمكّن من إطالة السحبة على هواه ويخرج دخانها من صدره شيئاً فشيئاً. صار وجهه ناحلاً، عظمتا وجنتيه بارزتان وصار يغمض جفونه نصف إغماضة دون أن يكون مشرفاً على الاغفاء.

تذكره جالساً في اتّجاهه المعتاد، جامداً شاحباً يشدّ على دفتره المغلق، ينظر ولا يرى شيئاً. الوقت بعد الظهر، الساعة الرابعة والمطعم فارغ من الزبائن مثل اليوم. في الطرف الآخر من صف الطاولات يجلس هراتش وفريد الأعمى يديران ظهريهما الى مجرى النهر وبينهما على الطاولة آلة التصوير

البولارويد، بينما يحمل فريد العود داخل ثوب القماش الأخضر الشبيه بقماش الستائر. هراتش لم يكن أرمنياً ولم يكن اسمه هراتش. اسمه الحقيقي عادل ويعتقد أن الناس يفضّلون المصوّرين الأرمن فيقلّد هؤلاء عندما يمرّ بقرب الطاولات ويضيء الفلاش فقط في عيون الزبائن ويسألهم بلكنته المفتعلة:

- صورة بابا؟

واذا دخلوا معه في جدال وشككوا في جودة صور البولارويد أخرج من جيب سترته صورة جميلة لفتاتين تقفان الى جانب درابزين المطعم ووراءهما النهر والناعورة. فيوافق هؤلاء على أن يلتقط لهم هراتش صورة ويرفعون كؤوسهم يدقون بعضها بالبعض الآخر ويبتسمون ثم ينتظرون دقائق يقوم بعدها هراتش بفصل ورقتي البولارويد فيمررون الصورة من يد الى يد وسرعان ما تخفّ لهفتهم أمام اللون الأزرق الطاغي على وجوههم وحتى على أشجار الدلب، فلا يتحمّس أحد لأخذ الصورة الباهتة وغالباً ما يغادرون وينسونها بين صحون الحمّص والتبّولة التي لم يكملوها. أبوها وأمها لم يكونا يرحّبان بفريد الأعمى وهراتش، أبوها يكاد لا يلتفت أو يرفع نظره عند وصول أحدهما، لكنها لم تشعر يوماً أن أحداً متضايق من وجودهما فهما يسعيان الى رزقهما في الدوّار كأنهما في مكان لهما فيه بقدر ما لغيرهما، مثلهما مثل المصّورين الذين يطاردون المتنزهين في الحديقة العامة في طرابلس. ولما اشتدّت الأحداث وانقطعت طريق الرملية ونسفوا جسر الريحان خفّت الرجل في الدوّار ولم يعد يأتي سوى أبناء الجوار، ظل فريد وهراتش يحضران وغالباً ما ينتظران النهار بطوله من دون فائدة. وإذا اشتدّ الحرّ وهبّت

نسمة رطبة من جهة النهر غلب عليهما النعاس وغطّا في نوم خفيف، هراتش يوكئ رأسه على راحة يده بينما يضمّ فريد عوده كما يضمّ بعض النائمين المخدة.

حاولت الاسترخاء مجدداً، الطقس معتدل ونادراً ما تمرّ أيام كهذه في أوائل الصيف. أفلتت جسمها كله، يديها، وسطها وحتى وجهها فأحسّت بالنمل يدبّ فيها دفعة واحدة فارتعدت كما في كل محاولة. لا تستسلم طوعاً إلا إذا تمدّدت في سريرها، على كتفها اليمنى لجهة الصدر. تستسلم مطمئنة. لماذا لا يمكنها التوقّف بعض الوقت وترك الحياة تمرّ الى جانبها من دون أن تصطدم بها؟ ظهر باخوس عند أول الجسر، توقّف وألقى نظرة سريعة في اتّجاه المطعم ثم فتح ذراعيه في اتجاه مار سمعان وصلّى ثم رسم إشارة الصليب فوق ماء النهر وأكمل طريقه. نهضت وأدارت الكرسي وعادت تجلس مديرة ظهرها الى النهر كما كان يجلس هراتش وفريد الأعمى قبالة والدها الذي كانت تتلفه سجائر الحشيشة. تريد أن تخبت مثلهما، منطويين على نفسيهما في تلك الظهيرات المضيئة حيث الوقت معلق، وأصداء الحرب لا تصل إلا منهكة. ربما تهدأ نفسها يوم تتوصّل الى أن تنام جالسة الى الطاولة التي كان هراتش يضع عليها آلة البولارويد وهو يشخر قليلاً، بينما يضمّ فريد الأعمى عوده وهو غاف واللعاب يسيل من زاوية فمه على القماشة الخضراء التي هي من صنف أقمشة الستائر.

قصدت الغرفة بدون تردد، حتى أنها أعملت كعب حذائها في بلاط الممشى خبطاً، وليسمعها من يسمعها، لتسمعها سعيدة داخلة الى غرفة موسى! انها غرفة والديها. أخرجت المفتاح من جزدانها وأدخلته في السكّرة، إنه من مفاتيح الغرف الداخلية مثله مثل مفتاح غرفتها. قال لها النجار الذي غيّر السكاكر إن هنالك فقط ستة أنواع من المفاتيح الداخلية ولها أرقام من واحد الى ستة، فيكفي الحصول من عند بائع الخردوات على المفتاح الذي يحمل الرقم المماثل للدخول الى الغرفة التي نريد. لا تحمل ربّا في جزدانها سوى مفاتيح داخلية. حاولت إدخال المفتاح في ثقب الباب فارتطم مرّات عدة بالنكل المحيط بالسكّرة وأحدث قرقعة لم تحاول التخفيف منها لا بل عندما وجد المفتاح طريقه أدارته بعنف فضرب حديداً بحديد ووجدت متعة إضافية في إدارة المفتاح دورة ثانية. ثم أمسكت القبضة وحركتها الى الأسفل لتحدث صوتاً حديدياً ثانياً فتفتح الباب وتتركه يضرب الحائط حيث حفرت القبضة الداخلية فجوة صغيرة من كثرة ارتطامها به. لن تدخل

خلسة الى غرفة والديها. موسى هو الذي دخل حياتها. لم يبلغها أنه عائد من نيويورك، لم يتلفن ولم يبعث برسالة. أنزل السائق حقائبه ليضعها على طرف الجسر وتناول موسى محفظته ليدفع له فيقفل عائداً الى بيروت قبل أن يحل المساء، فكادت ريّا، من حيث وقفت مشدوهة برؤيته، تنادي السائق لتطلب اليه ألا ينصرف. ولما سألها عن شغّيل كي يحمل حقائبه تردّدت، فهرع محمود من دون أن تطلب منه أو حتى أن تنظر أليه. سألت محمود في ما بعد لماذا اندفع لاستقبال موسى وهو لا يعرفه ولم يسمعها مرّة تتكلم عنه، فأجابها أنه لاحظها تأثرت لرؤيته الى درجة لم يخالجه شكّ ولو بسيط في أنها قد تمانع في استضافته.

- ألم تري نفسك كيف شهقت وصرخت: موسى!!؟

كل مرّة دخلت فيها هذه الغرفة بعد موته شعرت أن أحداً ما دخلها في غيابها. في المرة الأولى وجدت الشباك مقفلاً وهي كانت قد تركته مفتوحاً، إنها متأكّدة من ذلك. واليوم لاحظت أن السيبة الموضوعة عليها صورة رامي غير المكتملة وهو يقضم التفاحة قد أزيحت من مكانها والتصقت تقريباً بالطاولة بينما في المرّة السابقة كان يمكن المرور بينهما. لم تخف مرة ولن تخاف هذه المرّة. تخاف فقط على رامي أن يموت وهي على قيد الحياة وتخاف على نفسها أن تموت وهو لا يزال قاصراً. تؤلف كل يوم ومنذ ولد رامي سيناريو واحداً على الأقل. مرّة يتأخر أوتوكار المدرسة فتهرع بسيارتها لملاقاته فتجده وقد اصطدم بشاحنة، تسأل عن رامي فيقولون لها إن جرحه طفيف أخذوه الى المستشفى لتضميده وحين تصل الى المستشفى لا تتمكن من رؤيته لأنه في غرفة العمليات. ومرّة يصرخ صرخة من عزّ الروح يستنجد بها فتصل أيضاً متأخّرة لتجده مرمياً على

الأرض والدم ينزف منه.

تركت الباب مفتوحاً وراءها وتمعّنت في أرجاء الغرفة لتحدّد المكان الذي يمكن أن يودع موسى فيه أسراره. فتحت الدرج الأول محدثة ضجّة مقصودة فلم تجد سوى علبة فيتامين، فتحت الدرج الثاني بقوّة على أمل انتزاعه وإسقاطه أرضاً فعلق من آخره وكان فارغاً. فقط فتات أوراق وغبار. لا بدّ ان تكون هنالك أغراض تخصه في هذه الغرفة. تحت الفراش. رفعت الفراش الذي كان ينام عليه فلم تجد شيئاً. لم تعد ترتيبه. كان المغلّف الأسمر السميك موضوعاً تحت الفراش الثاني. تعمّدت العبث بالغرفة حتى أنها رغبت في تخريب أثاثها ورميه من الشباك. فتحت المغلف بإقدام من يطّلع على شيء يخصّه، لم تشعر هذه المرّة أنها تنظر الى شخص نائم من دون إرادته. لا يهمّها إن دخل أي كان وراءها لا بل تمنّت أن تأتي سعيدة وتتفرّج عليها. حتى أنها صارت تسحب الأوراق وتنشرها في أرجاء الغرفة. داخل جواز سفره الأميركي صور عدّة بينها صورة صغيرة متآكلة الأطراف لا شك أنها صورة جدته. بدا لها فجأة أن كل ما أخبرها به عن تلك المرأة لا ينطبق على صورتها. اعتقدتها طويلة قوية بيضاء فاذا هي سمراء تشبه نساء عرب الرويس، حتى أنه يظهر حول ذقنها آثار وشم. هنالك صور أخرى داخل جواز السفر. ثلاثة رجال يلبسون قبّعات ويضعون أيديهم على أكتاف بعضهم البعض وهم يبتسمون سعداء. واحد منهم موسى، الواقف الى اليمين. أرخت يديها ونظرت عبر نافذة الغرفة. أوراق الدلب وأغصانه تحجب الأفق ولا يرى عبرها سوى بقع من السماء الزرقاء.

كلّها رسائل حبّ واشتياق ومواعيد تعذّر احترامها، دائماً لأسباب طارئة. لا تتقن ريّا الانكليزية رغم انها تفهم ما يقال اذا تحدث المتكلم ببطء كما يفعل المذيعون في محطة الـ بي بي سي. كما أنها لا تفهم الكثير من الأفلام الأميركية إذا شاهدتها بدون ترجمة. كانت معلّمة اللغة الإنكليزية في المدرسة الإيطالية لبنانية تحاول تقليد فكرة شائعة عن السيّدات الانكليزيات كما يظهرن في الأفلام التي تجري أحداثها في قصور ريفية وسط طبيعة رائعة ومترامية الاطراف، فتمطّ شفتيها وتتلفظ بالحروف بملء فمها. تحضر غالباً الى الصف معتمرة قبعة تتدلّى منها شريطة تربطها تحت ذقنها. وهنّ يمضين ساعة الدرس في الوشوشة والسخرية من تصنّع المعلمة، ولا يعود الهدوء الا اذا انفجرت غاضبة وراحت تصرخ بالعربية أنهن شقيات ولسن أهلاً لتعلّم اللغة الانكليزية والتمثل بالحضارة الانكليزية.

الرسائل من ثلاث نساء فقط، ولم يكن بينهن اسم المرأة التي تلفنت لريّا في الأمس وقالت إنها زوجته. رسائل

صغيرة، كأنهن قرأن كتاب فنّ المراسلة نفسه فجاءت مشاعرهن متشابهة باستثناء واحدة تدعى فرانسين تتطرف في وصف غرامها كما فهمت ريّا، فهي تقول له إنها تحلم به دائماً لأنه يمارس الحب كالجبل. تنظر ريّا الى الرسائل، تقرأ السهل منها ثم تدعكها وترميها. رمتها في كل أرجاء الغرفة. لم تجرؤ على تمزيقها. هذه الرسائل تجرحها ولا تجرح أحداً غيرها. لو تجمعها وتحرقها. فكّت مجموعة الأوراق والمغلّفات المربوطة كشريط الحذاء، حذاء رامي كما تربطه له كل صباح. تحبّ هذه العقدة لأنها سهلة الحلّ شرط أن لا تضاف إليها عقدة ثانية مشدودة كما تفعل مع رامي خشية أن ينحل شريط حذائه فيتعثر به ويتعرض للسقوط.

لم تجد رسالة من أمها فجنّ جنونها. فلفشت الأوراق والرسائل المبعثرة في أرض الغرفة من جديد فلم تقع على شيء. لا أثر لأمها في غرفة موسى سوى رسمها الذي دلّها عليه دانيال وهي سابحة في هذا الأفق الأزرق. رفعت الفرشة الأولى ونظرت تحتها من جديد. لا شيء. تحت الفرشة الثانية، لا شيء أيضاً. لم تعد ترتيبهما. فتحت الأدراج مرة ثانية وتركتها مفتوحة. تريد أن يأتي الجميع الى هنا ويقرأوا معها رسائله. نظرت اليها بديعة طويلاً وبدل أن تندب الميت ندبت أمها. لو تستطيع ان تمسك بديعة من رأسها وتنتف شعرها شعرة شعرة، القحباء. ومن يصدق انها فوق كل ما فعلته بها دفعت لها أجرتها، هي ريّا، من جيبها. وبقية النساء جئن للفرجة على بنت الدوّار، على بنت هند تدفن موسى بشارة، قلبها منفطر حزناً ولا يحق لها البكاء. جئن كثيرات ومنهن من جاءت مرات عدة. ولما قالت بديعة على أمها صرن يتغامزن، رأتهن وهي هاربة لتبكي خارجا كي لا يخيل لأحد

أنها تبكي عليه، ثم سمعت وشوشاتهن في ظهرها لما عادت لتجلس في الصف الأمامي. وحدها نور أشفقت عليها، سهرت معها طوال الليل، لم تكن ريّا قادرة على تركه وحده في بيت الأخوية. نور تعرف أمها، كانتا رفيقتين أيام العزوبية.

- الناس ظلاّم يا ابنتي، ليس في حوذة الله حجار ليرمينا بها. انظري حولك، ألا ترينا لا نخلع الأسود؟

صارت تخبرها، وكأنها تراضيها، كيف كان الشباب مولعين بهند يؤلفون على اسمها العدّيات وهي خجولة لا تقطع خيطاً قبل ان تسأل أمها.

- ماذا يريدون مني، ألم يكفني موت أبي وأمي وأنا لم أكن أعرف من الدنيا إلا ما أخبرتني إياه رفيقاتي، وما سمعته من راهبة إيطالية تعيش داخل عالمها الصغير القائم على إماتة النفس والطاعة؟

- الناس يتساهلون ولا ينسون.

لم يبق في الغرفة الا الخزانة لم تعبث بها، خزانة الثياب. لم تعط ثيابهما للفقراء كما نصحها الجميع، وضعت كرات النفتالين في الخزانة وأقفلتها. كل ثيابهما هنا باستثناء ما كانا يلبسانه. راحت تخلع ثيابها على مهل فهي لم تعد تستعجل الامور. رجع موسى بشارة فوقفت حياتها كلها أمامها منظراً واحداً، تتجول فيها ولا يمكنها مغادرتها. لم تقفل باب الغرفة ولم تقفل الشباك الذي يطلّ على الجسر والطريق العامة. داعبت كتفيها العاريين وفخذيها وبحثت عن مرآة فلم تجد. حتى الكاهن أدلى بدلوه. لما بدأ يعدد مزايا موسى وروح المغامرة وحب التقدم اللذين دفعا به الى الهجرة الى الولايات المتحدة الأميركية بحثاً عن الشهرة والاستزادة من معارف

الغرب ومدارسه الغنية اعتقدت ريّا أن التأبين سيمرّ على خير. لكن لما رجع معه الى لبنان ليمضي آخر أيامه في وطنه وبين أهله وتنهدت سعيدة الجالسة وراءها بصوت عال، أحست ريّا أن الكاهن قد وصل اليها. تودّ أن تعرف بما همس دانيال في أذنه في منتصف الجناز، وماذا أخبره عن موسى وعنها وعن الدوّار لأنه أطال الوقوف الى جانبه وهو يحكي والكاهن يهزّ برأسه موافقاً وبدا لها أنه في لحظة وهو يستمع الى دانيال جال بنظره في الكنيسة بحثاً عنها، فطأطأت رأسها لكي تتحاشى نظراته. وهكذا فعلت لما راح ينوّه بها كيف استقبلته في هذا المكان الذي أحبه بشكل مميّز وان صداقة متينة كانت تربط بينه وبين والديها. ومن جديد ارتفعت من حولها همهمات النساء.

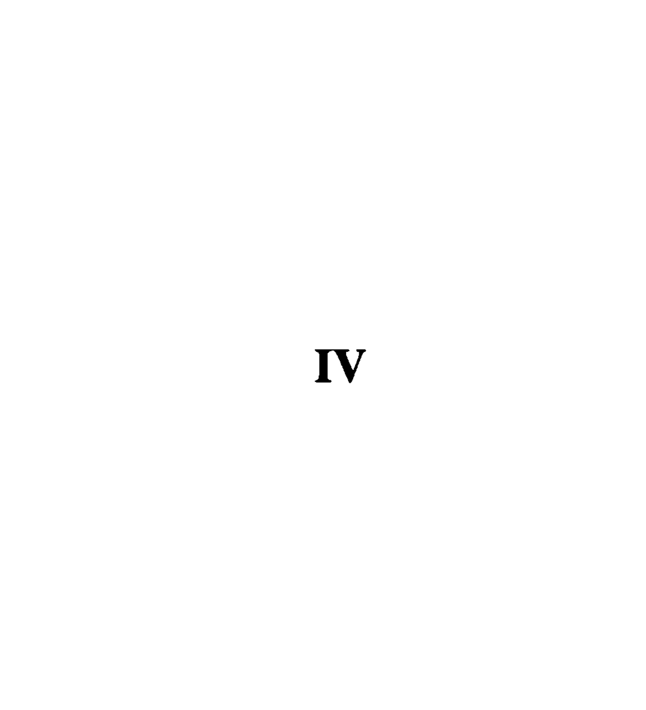
لم تعرف كم مضى على وقوفها عارية وسط الغرفة. اقتربت من الشباك المفتوح. فليرها المارة وسائقو السيارات العابرون فوق الجسر وليرها الأب جبرايل من فوق، من احدى نوافذ دير مار سمعان اذا كان واقفاً خلفها! التصقت بالنافذة فأحست ببرودة الزجاج على نهديها المرتخيين. مرت سيارة هوندا حمراء اللون، السائق والجالس بجانبه يتحادثان وينظران أمامهما.

وقفت وسط الغرفة تتأمل صورة رامي غير المكتملة. أدارت السيبة واقتربت من النافذة الاخرى المطلّة على المطعم وراحت تنظر الى الصورة والى المكان الذي جلس فيه رامي حين حاول موسى رسمه. بدل أن يرجع الى هنا ويفتح أبواب حياتها على مصراعيها كان قادراً على سحبها الى هناك هي ورامي، ولو فعل لأقامت هي أيضاً في مدينة لا تشبهها مثلما أقامت جدته مريانا في فورت واين. مكان جديد تبدأ فيه من

جديد. لكنه فضّل العودة، هو أيضاً يحب الأمكنة التي تشبهه، هو أيضاً لا يموت إلا بعد أن يقفل دائرة حياته.

عادت الى خزانة ثياب والديها، فتحتها وأخرجت أحد فساتين أمها. كانت رائحة النفتالين قوية جداً. بحثت عن العلبة الخشبية وأخرجت منها جديلتيها الطويلتين اللتين لا تزالان مربوطتين بشريطتين حمراوتين. ارتدت فستان أمها ورمت جديلتيها فوق كتفها وجلست أرضاً كما كانت تجلس وتضرب بيديها لكي يسمحوا لها بالوقوف في الصورة مع الزبائن أمام هراتش الذي يكرّر عبارات بالأرمنية ليضحكهم. عنّ لها الغناء.

IV



كان رامي منحنياً فوق الدرابزين يتفرج على البطة الميتة الطافية بالقرب من حائط السد المتداعي. البطة الأخرى تقترب من الميتة وتنقرها في ريشها. قال لها رامي بلهجة خالية من الأسف:

- ماتت.

اقترب محمود:

- تسمّمت.

كيف يعرف؟ سألها رامي:

- الى أين تذهب؟

أجابه محمود:

- سنطعمها لتوتسي.

- لا!!!

ضرب محمود بقبضته الصغيرة. كان رأس البطة غارقا في الماء ولا يظهر منها سوى كتلة ريش رمادية وبيضاء. ابتعدت رفيقتها عنها قليلاً وانطلقت فجأة تشق الماء وتصفّق بجناحيها وهي تقوّق بصوت جارح. قال رامي:

- زعلانة على رفيقتها.

وبعد قليل تذكّر غيابها طوال النهار فتحوّلت لهجته الى بداية بكاء وسألها:

- أين كنت؟

تحب الذهاب وحدها الى بيروت منذ زالت الحواجز عن الطرق. تسلك الطريق القديمة، تقود سيارتها على مهل وتنظر الى البحر. انتظرت اكثر من نصف ساعة قبل أن يستقبلها المدير، كانت السكرتيرة الشقراء تعمل على الكومبيوتر وتردّ في الوقت نفسه على المكالمات الهاتفية المتلاحقة من دون أن تنظر إليها ولو لمرّة واحدة. أول ما سألت المدير عن بسام عبد الملك ابتسم وقال إن الشركة تحاول الحفاظ على أموالها. وأموال المضمونين، وإن الموظف الذي يتوصّل الى توفير ليرة واحدة ينال مكافأة في المقابل فكيف إذا كان الامر يتعلق بالمبلغ الذي تعرفين؟

والنتيجة؟

رفع المدير سماعة الهاتف وسألها كيف تفضّل القهوة فأجابته:

- بدون سكر.

واستأذنته بإشعال سيجارة فنهض من وراء مكتبه وتقدّم لاشعالها بولاعته التي لم تعمل الا في المحاولة الثالثة. تتعامل الشركة مع آلاف الملفات، والتعليمات واضحة في حالات التأمين على الحياة. أخرج من درجه ورقة مطبوعة بالانكليزية ورفعها لكي تراها ربّما. نحن أكبر شركة تأمين في العالم. حتى في الولايات المتحدة وفي أوروبا نقوم بتحقيقاتنا الخاصة، والأفلام التي نراها في السينما والتلفزيون ليست من صنع الخيال. هنالك أمور أخطر بكثير. دخلت السكرتيرة حاملة

فنجان القهوة وكوب ماء.

له شاربان دقيقان على طول شفته لا تعرف كيف يحافظ عليهما عندما يحلق ذقنه كل يوم فيمرّر الشفرة بهذه الدقّة بين أنفه وشفته العليا. أطفأت سيجارتها وأحسّت بحاجة الى سيجارة ثانية لكنها تمنّعت.

- في حال الوفاة من واجبنا أن نتأكّد من احتمال حصول جريمة، فهنالك جرائم يتم إخراجها كأنها حوادث. وفي حال ثبوت الجريمة يجب أن لا يكون القاتل أو المحرّض على القتل هو المستفيد من بوليصة التأمين! في هذه الحال تصبح الشركة في حلّ ممّا هو متوجّب عليها وذلك بحسب الاتفاقية بيننا وبين المضمون نفسه.

وأبرز لها مرّة أخرى دفتراً على غلافه شعار الشركة. كان تهذيبه يزداد.

- لما أبلغتني السكرتيرة بقدومك طلبت تقرير بسام عبد الملك وقرأته من جديد. الحقيقة مدام أن ميتة - تردّد قليلاً وهو يبحث عن الاسم في الاوراق التي أمامه - موسى بشارة ليست ميتة واضحة. هنالك علامات استفهام كثيرة. في حال تقدّم المستفيد من البوليصة بطلب للحصول على المال، فان مكتب المحاماة الذي يهتمّ بقضايا شركتنا سيتحرّك فوراً بدعوى أمام القضاء للتحقيق. لا أعرف إذا كان الوصول الى المحكمة يناسبك.

- كيف عرفتم أنني انا المستفيدة من بوليصة التأمين؟

- ألست أنت ريّا أبو خطار؟

- نعم.

- اسمك مدوّن من الأساس عندنا كالمستفيدة الوحيدة من تلك البوليصة. منذ العام ١٩٧٥، الشهر الرابع أي منذ اليوم

الاول لسريان مفعولها. هنالك أشخاص يبدّلون آراءهم ويغيّرون اسم المستفيد. اسمك لم يتغيّر.

- لماذا يكون اسمي عندكم بينما جرى التأمين في أميركا؟

- لا شك أنه هو أراد ذلك وطلب إرسال البوليصة الى لبنان.

دق جرس مار سمعان. يدق مرّة واحدة الساعة السابعة صباحاً. تذكرت أن هناك اجتماعاً للرهبان في الدير وانهم ربما يجتمعون لصلاة الزياح في هذا الوقت. جاء محمود بقصبة طويلة من وراء المطعم وشكّ في رأسها قضيب الحديد المطوي عند رأسه والذي يصطاد بواسطته ما يوقعه الزبائن من غير قصد. كانت صفحة الماء هادئة والطاحون والسماء وأشجار الدلب منعكسة فيها. أضاءت سعيدة من الداخل المصابيح الكهربائية الموزّعة على جذوع الأشجار. قفز محمود فوق الدرابزين وأمسك بالحديد ومدّ جسمه فوق الماء ليتمكّن من ايصال رأس القضيب الى البطة الميتة العالقة عند طرف السد، وراح يحركها في اتجاه مسرى الماء. ضربها ضربة قوية فسرحت وبقي رامي يراقبها حتى اختفت في البعيد وراء أغصان أشجار الصفصاف المستحي المتدلية أغصانها حتى تلامس صفحة ماء النهر.

لم تنم تلك الليلة أيضاً. سئمت من مراجعة حياتها والاصطدام دوماً بمساحة بيضاء فارغة وملساء، لا يجيئها النوم. تتقلب، تتعب، تحاذي الهاوية وتكاد تختنق مرات عدة قبل أن تنام. صار لها أيام لا يستسلم جسمها ولا تستسلم عيناها إلا مع جهجهة الضوء، مع تكاثر هدير السيارات التي تعبر الجسر. شاحنات الخضر الصغيرة النازلة الى السوق أو تلك التي تقلّ العمال الصباحيين الى شركة الترابة أو الى ورش البناء. ستطول نومتها قليلاً لأن مدرسة رامي أقفلت أبوابها.

النهار قريب وستستيقظ لتعود الحياة تدفع بها من جديد وتوجّه اليها صفعات متتالية. كم هي طويلة حياتها وكم هو طويل الوقت المتبقي أمامها لمغالبة الناس والاحداث. تحلم أحيانا بإمكان تحاشي الحياة، ليس كما يتفادى المصارع الاسباني الثور الهائج المنطلق بل على طريقة من يشهد معركة تجري في سهل منبسط وهو مختبئ فوق مرتفع وسط هيشة كثيفة يرى منها ولا يُرى، لا يطاله رصاص المتحاربين ولا ضجيجهم. من أين لها هذا هي المقيمة على قارعة الطريق،

ريّا النهر التي لم تتمسك بحبل الا انقطع بها، والتي تتوقّع في كوابيس اليقظة أن رامي يخبئ لها الحادثة الأخيرة؟

صار جسمها يوقظها أيضاً، وبكثرة. كما في دورتوار المدرسة الإيطالية. الراهبات تتركن التلميذات الداخليات وحدهن ربع ساعة لا أكثر، بعد العشاء وبعد الانتهاء من اتمام الفروض والدروس، ربع ساعة يفترض بهن أن يلبسن فيها ثياب النوم ويتمتعن بقليل من الحرية بعد نهار طويل من الانحباس. مشهد البنات اللواتي يكبرنها سناً يتدافعن ويتغامزن ويتضاربن بالمخدات، وهن يبحن بأسماء الشبان المغرمات بهم أو حتى فقط بالأحرف الاولى من أسمائهم، منظرهن يضحكن ومن ثم يتهامسن ويتنهّدن في الفراش بعد دخول الراهبة ودعوتهن اياهن للنوم هو الذي أيقظها على نفسها، على جسمها. في السنة التالية بدأت تشاركهن التباري بأسماء الشبان وتغفو على صورة كميل يغمرها ويشد، تسترجع ملامسته لها وقبلاته الحارة وتتخيل عناقاً لا ينتهي. كان بعضهن يتفوّق عليها بالصور، هي لم تستطع اقناعه باعطائها صورته. لما هرّبه أهله منها صارت تبتعد عن رفاقها وتغطي رأسها باللحاف، فانتبهوا وتجمعوا حولها يسألونها، رفضت البوح وأجهشت بالبكاء وهي تغرق رأسها تحت المخدّة. لما تعرّفت الى جان خافت أن تفقده، أن يتركها، فارتمت عليه. أول مرّة دعاها فيها الى شقة أحد أصدقائه ذهبت. لم تسأل أحداً. نامت معه وهي خائفة، اعتقدت انها الطريقة الوحيدة كي لا تخسره هو أيضاً. لم تدرك ما فعلته إلا عندما تخلّف عن موعد ضربه لها بعد يومين وغاب مدّة أسبوع. اعتقدت انه لن يعود لكنه رجع متذرعاً بالتجارة والاعمال.

جان ملك الذرائع. حاولت أن تحبه من قلبها، صبرت عليه طويلاً، لم يكن مؤهلاً لما دعت نفسها اليه معه. أول أسبوع بعد زواجهما كان ينام معها كل ليلة، ثم بدأ يوماً بعد يوم يدّعي التعب. ومع بداية الحرب لما صار يسهر مع رفاقه في مقاهي القمار ويرجع مع الصباح لم تعد تنتظره، ولما صارا وحدهما في الدوّار وجاء برفاقه أحسّت أن قصتهما لن تطول. وكانت تريد ولداً فهادنته ولاطفته، صارت تطبخ له الأكلات التي يحبها، تختار له ثيابه وتضعها الى جانب السرير ليستيقظ ويجدها جاهزة، لا توجه اليه كلمة لوم واحدة وتنتظره حتى ينتهي من ضرب الزهر والشتم والتدخين. كانت تريد ولداً بأي ثمن. كانت قد أصبحت وحدها في هذه الدنيا، ربّا وحيدة أهلها بدون أهلها، وحدها هي وجان، وجان يفلت منها، يغرق بدون رجعة في عاداته ومساوئه. لم يكن قادراً على تأسيس عائلة، هذا أمر لم يكن في حسابه، وهي لن تبقى وحدها. كان سقف الدنيا واقعاً فوق رأسها فتمسكت بفكرة الانجاب هذه كما يتمسّك الأعمى بالعصا. تعلّمت عدّ أيام الدورة الشهرية وإعداد الرسم البياني لحرارة جسمها. تبعاً لحساباتها هذه كان يجب أن ينام جان معها لأربعة أيام متتالية على الأقل من أجل الوصول الى نتيجة. في الأيام الثلاثة الأولى لم يمانع وسار كل شيء على ما يرام. اليوم الرابع كان يوم سبت على ما تذكر، فطلب منها جان إذناً بدعوة رفاقه الى العشاء. كانت لا تزال محزونة لكنها أحبت أن تسايره كي لا يحرد ويهرب منها. بقي أمامها يوم واحد.

كانوا تقريباً عشرة رجال وثلاث نساء لم تسأل حتى إذا كنّ من زوجاتهم أم لا. رفاقه في البوكر وأربعة أو خمسة آخرون على شاكلتهم. مرّت الساعة الاولى بسلام إذ كانوا يأكلون

ويشربون بصمت حتى بدأ أحدهم بالغناء فأسكته جان وهو يشير نحو المطبخ ليفهمه أن ريّا في حداد على والديها. صمتوا برهة لكن بعد قليل صار العرق يتكلّم فعادوا الى الغناء ولم يتمكّن جان من منعهم وسرعان ما انضم اليهم. أخبروا كل أخبار الزعرنة وغنوا أغاني الفراقيات، شرب اثنان منهم العرق بأحذيتهم ثم رقصوا فوق الطاولات. بقي منظرهم مألوفاً حتى خطر لواحد منهم وقد تعتعه السكر أن يتحدى الآخرين بأن يستفرغ ما أكله ويعود للأكل من جديد. أعجبوا بالفكرة وبدأوا فوراً بوضعها موضع التنفيذ فاقتربوا جميعهم، الرجال وجان معهم وواحدة من النساء الثلاث، من الدرابزين وانحنوا فوق النهر وراحوا يفرغون ما أكلوه في الماء وهم يرافقون ذلك بأصوات يبالغون فيها عن قصد. البعض منهم استفرغ ثلاث مرات وعاد يأكل اللحم المشوي والحمّص ويدلق العرق دلقاً. عند منتصف الليل كانوا ممدّدين على كراسيهم منهكين يصعّدون الآهات والضحكات المتقطّعة. انتظرته حتى الصباح ليضاجعها مع أنه كان شبه غاف ورائحة العرق والاستفراغ تفوح منه.

جاء ساعي البريد بالسيارة. أوقفها ونزل وفي يده رسالة واحدة. لا يحمل حقيبة ولا يلبس قبعة أو زياً يدل على وظيفته، انه على الارجح ليس فخوراً بها. الرسالة من شقيقته في كاليفورنيا. قال لها ساعي البريد:

- أصرّ مدير المكتب أن نسلّم الرسالة الى العنوان الذي كان يقيم فيه.

وأضاف كأنه ينقل فكرة المدير:

- ربما فيها أخبار مهمة تتعلق به.

أخذتها ووقّعت على دفتر حمله من السيارة.

لم تتردد هذه المرة، حتى أنها أرادت فضّ الرسالة في اللحظة ذاتها لو لا أنها فضّلت أن تكون وحدها لقراءتها، فهي صارت تعرف أن كل ما يتعلق بموسى بشارة قابل للانفجار في وجهها. الاسم والعنوان مكتوبان بالعربية وبخط أقرب الى خط الاولاد. إنها أكبر منه سناً وقد سافرت قبله بسنوات وتزوجت هناك. أضاف أحد الموظفين، وربما مدير المكتب شخصياً بخطّ يده على المغلف: إيصاله الى الدوّار وتسليمه

الى أصحاب المقهى بعد التوقيع.

الرسالة مكتوبة بالانكليزية أيضاً وبخطّ جميل ومتناسق كأن الصفحة قطعة واحدة متراصة يجب كسرها من طرفها من أجل الدخول إليها. شكل الأحرف يتكرّر في صورة متطابقة تماماً. لم تفهم الكثير هذه المرّة. بضع كلمات متناثرة فقط، قراءة الخط صعبة عليها. خطوط النساء الاميركيات اللواتي احتفظ موسى برسائلهن خطوط منفلتة متعرجة. سوزاناه بشارة - فيليبيو كما توقّع اسمها كاملاً تكتب جالسة مستقيمة وراء طاولة من الخشب المحفور اللماع وبيتها يضجّ بالخدم المهذبين والاولاد، بينما النساء اللواتي أغرمن بموسى يتّخذن من مخدّة النوم منضدة ليكتبن، وهنّ يسكنّ وحدهن في شقق صغيرة لا يزورهن فيها أحد، ويمضين النهار في ثياب النوم الخفيفة تظهر منها أكتافهن وسيقانهن العارية، فيتركن أواني المطبخ متسخة والجوارب النيلون والأحذية ذات الكعب المروس الطويل مرمية بقرب السرير وحتى في ردهة الاستقبال. مأخوذات كلياً بالحب وطقوسه.

استطاعت فهم الجملة الاولى فقط. انصلت بك مرات عديدة في الأسابيع الاخيرة فلم أجدك. تفحصت ريّا المغلف، انه مؤرخ من أميركا في ٢٧ نيسان وفي بيروت في ٢١ أيار، استلزم وصوله من بيروت الى هنا خمسة أسابيع. عليه ثلاثة طوابع بريدية. ما دفعها الى التفكير في شخص يساعدها في قراءة الرسالة وفهمها جيداً ان اسمها يتكرر فيها مرتين، this girl Rayya ومرة Rayya's أخته أيضاً تعرفها. لم يخبرها أنه قادم الى لبنان كما فهمت ريّا فكيف علمت بإقامته عندها وأرسلت المكتوب على عنوان الدوّار؟ اصطدمت شاحنة كبيرة بالشجرة التي علّقوا على جذعها علبة البريد الحديدية. كان

ذلك منذ زمان، عندما كان ساعي البريد العجوز يمرّ مرّتين في اليوم على دراجته ليفتح العلبة ويأخذ الرسائل التي يودعها فيها رهبان دير مار سمعان أو زبائن الدوّار أو حتى المارة. كانت ريّا تفكر بتلك الرسائل التي تمضي الليل هنا على جذع الدلبة وهي قادرة على سحبها وفتحها وقراءتها ولا تفعل.

اسمهان أفضل منها بالانكليزية، لجأت اليها لأنها بعيدة ولن ترهقها بالأسئلة. جلستا في المطبخ وحدهما. تفوح فيه رائحة البصل المقلي على النار. هي أيضاً وجدت صعوبة في قراءة خط سوزاناه.

- البداية سهلة وأنت فهمتها. ثم تقول... (تخفض اسمهان صوتها لتقرأ الجملة بين أسنانها)... إنها تبعث إليه هذه الرسالة وهي... غير متأكدة من وصولها... وقد أرسلتها على عنوان ريّا التي تحبّها (تتوقف عن القراءة لتبحث عن العنوان المذكور وكيف كتبته سوزاناه على المغلف)... انها طوابع جديدة، لم أر مثلها من قبل، أيمكنني الاحتفاظ بها؟... (تعود الى الرسالة فتقرأ جملة وهي تهمهم، تكاد لا تحرك شفتيها)... ما هذا؟ (تعاود مجددا قراءة الجملة، ببطء هذه المرة، وهي سرعان ما حاصرت الصعوبة فتوقفت عند الكلمة العاصية)... كان عندي قاموس انكليزي-فرنسي وفرنسي-انكليزي أعاره أخي الى صديقه السنة الماضية ولم يرجعه. الناس لا يرجعون الكتب... (وفجأة)... تطلب منه أن يتبع الريجيم الذي أوصاه به الأطباء... (تقرأ المقاطع التالية بسهولة وبصوت عال) وتذكّره بأنها اصطحبته في شهر شباط الماضي لاجراء الفحوص في لوس انجلس حيث أكّد الطبيب أن صحته جيدة (تتعثر في القراءة مجدداً)... هنالك سيدة من آل البستاني حاولت الاتصال به وهي تريد ان تشتري منه...

باينتينغ؟ رسمة. تمثل دير قزحيا والوادي المحيط به على ان تكون مستطيلة ومن القياس الكبير... أجابتها شقيقته أنه متوقف منذ زمن طويل عن الرسم... وانه الآن في لبنان وسيرجع قريباً وقد استعاد رغبته في الرسم... لم لا تحاول ان ترسم لها وادي قزحيا...؟ أخبرني متى تنوي العودة الى نيويورك... (تابعت القراءة بعينيها حتى نهاية الرسالة. توقفت. تفرّست في ريّا وعاودت القراءة مرة ثانية من دون أن تحرك شفتيها)... الباقي سلام وكلام... (لم تطو الرسالة بل عاودت النظر اليها)... هنالك فقط مقطع صغير يتكلّم فيه عنك ولم أفهمه... هل موسى هذا من أقاربك؟ (...) لا أدري، إنها تطلب منه شيئاً مثل الاقلاع عن نسج الأوهام حول تلك الفتاة ريّا... (ابتسمت بسبب عبارة فتاة على الأرجح). أية أوهام؟ (...) أعتذر عن السؤال فأنا لا أحب التطفل على حياة الناس الخاصة.

حتى تلك الفأرة أسمهان تعرف كيف تؤذيها وهي تبتسم...

بدأت أسنانه بالسقوط واحداً تلو الآخر وصار مواظباً على طقمه البني يلبس عليه القميص الأبيض أو القميص السكري وفوقه في أيام البرد كنزة صوف خفيفة. ابتعد نهائياً عن صورته التي يشبه فيها الشاعر الياس ابو شبكة. كانوا يقولون له إنه يشبه الياس أبو شبكة فيبتسم حياء، لكنه يجد دائماً طريقة ليقلّد فيها تسريحة شعره وشاربيه. كان فخوراً بشعره، وفي شبابه كان يغطّه في خابية زيت الزيتون ليلمعه، ويوم دهم الجيش الدوّار إثر مقتل يوسف الدب فأوقف وأخذ الى سجن الرمل حلقوا له شعره فبقي أسبوعا كاملاً لا يأكل. طلبوا منه أن يشهد فاخبرهم بما رآه. كان يوسف الدب يتعشى مع صديقين له، شربوا قليلا ثم نادوا فريد الأعمى فانضمّ اليهم وأخذ يضرب على عوده ويوسف الدب يغني ولما قال:

عالأوف مشعل اوف مشعلاني
وبارودة بو سمرا مرمّلة النسواني

عرف والدها أنه تمادى في التحدّي، لكنه لم يكن يتوقّع أن

يدق أحدهم بابه ويطلق عليه النار ويقتله في الليلة نفسها، بعد ساعتين من مغادرته الدوّار. هذا ما باح به، أما المحقّق فاعتقد أنه يعرف أكثر من ذلك ويخفي المعلومات فسجنه.

في صورة أحد الشعانين يشبه الياس أبو شبكة أيضاً ولو أن الصلع بدأ يكشف عن مقدّم رأسه وقد حاول التعويض عن ذلك بالابقاء على شعره كثيفاً في الخلف. يحمل شمعة طويلة في رأسها أربعة بالونات، ربّا في الوسط بينه وبين أمها، تلبس فستاناً مليئاً بالأزرار وتبدو كالخائفة. أخبروها أنها بكت كثيراً يومها. في صورة يوم الشعانين هذه بدأت تظهر في عينيه بوادر ما سيصبح عليه وجهه في ما بعد، يوم لم يعد يشبه الياس أبو شبكة في شيء. انتفخ جسمه أيضاً من فرط الشراب والجلوس. كيف تريده أن يقتني بيتاً واسعاً؟ والده خليل اكتفى بغرفة البستان الصغيرة، وهو من الطاولة الى السرير ومن السرير الى الطاولة، يتنبأ بالعاصفة إذا لمعت السماء لجهة الساحل السوري فيهز رأسه ويقول:

- لادقاني صادقاني.

ويستعد للانتقال الى الداخل حاملاً كرسيه معه.

مع الأيام صار ينطوي على نفسه أكثر فأكثر، تمرّ ظهيرة كاملة لا يتلفظ فيها بكلمة. إنها الحشيشة. خبأتها عنه فضربها بيده. تلك كانت المرّة الأولى التي يضربها فيها منذ زواجهما، كانت تلك المرة الوحيدة التي يغضب فيها هكذا. لم يعد أحد يناقشه في هذا الأمر. هنالك الكثير من مهرّبي الحشيشة، يدخل بعضاً منهم السجن ويخرجون بسرعة ويعودون الى تجارتهم. أغلبهم وهّابون نهّابون، المهم أن لا يتمّ اعتقالهم خارج لبنان فيجورون في الحبس. هو المدمن الوحيد المعروف، وتعتقد ربّا أنه كان يحصل على مؤونته مجاناً من التجار الذين

كانوا يرتادون المطعم. ربما كانوا يشعرون بالذنب تجاهه في شكل من الأشكال. وتتذكّر ريّا أنه لما صار جان يعرفهم عن قرب سألها لماذا لا يسعون الى إيقافه عن تدخينها فأجابته بما كان يعتقده الجميع في الدوّار آنذاك:

– إذا منعناه عنها يموت.

صار يبكي أحياناً، في السنوات الأخيرة، دموعه تنزل من دون سبب ومن دون أن يكون حزيناً. هكذا، فجأة. واذا لم يخرج بسرعة منديله الأبيض تبلّل الدموع كتابه. ربما صارت قراءة الشعر تبكيه في آخر أيامه. لم يعد يجد من يلقي عليه قصائد المتنبي. حاول مرة واحدة مع جان لكن جان لا للسيف ولا للكيف ولا لغدرات الزمان. خذله. ما ان رفع يده وطلع بصوته المرتجف حتى بدأ جان ينظر الى ساعته، وبعد قليل ادّعى أن لديه موعد عمل مهماً وانسحب. عاتبته ريّا فقال إنه لا يفهم الشعر العربي ولا يحبه، ويذكّره بالمدرسة وبالنهوض باكراً وباستاذ كان يضربهم بمسطرة الحديد على أصابعهم أيام البرد القارس وانه إذا رزقه الله أولاداً لن يرسلهم الى المدرسة.

صار هزيلاً ضعيفاً. لم يكن يقبل الذهاب الى الطبيب، لم يكن يقبل أي شيء تطلبه منه أمها. أرسلتها هي وعلّمتها كيف تحكي معه. تقبّلينه أولاً ثم تجلسين بجانبه وتسألينه ماذا يقرأ وكيف حاله وتطلبين منه الاهتمام بصحته.

– كرمى لي انا ابنتك الوحيدة.

تقولين له وتقبّلينه من جديد. وافق لكنه اشترط الذهاب الى الطبيب يوم الخميس. ألبسَته طقماً وربطة عنق وارتدت هي فستانها النبيذي. رأتهما للمرّة الأخيرة من الخلف يصعدان صوب الجسر حيث كانت سيارة جان متوقفة، تجاريه في مشيته البطيئة فتمسك به من يده وتمشي متمهلة. أوصلهما

جان الى موقف السيارات العمومية المسافرة الى بيروت ورجع. أخبرها جان أن والدها سأله إذا كانت الطريق آمنة. هي أقنعته بالذهاب الى الطبيب ولم يرجع لا هو ولا أمها. صنعت قصتها بيدها.

الرجل، لم يدر أحد من أين جاء ولماذا اختار طاحونة الدوّار. جاء في يوم ماطر وقد مضى على بداية الحرب أكثر من سنتين. يرتدي بزة عسكرية خضراء اللون مبهدلة، بنطلونه واسع في أسفله، يشبه البيجاما ربما لأنه ينتعل حذاء صيفياً عادياً وليس رانجر أو جزمة عسكرية كالآخرين يجمعون طرفي بنطلونهم داخلها. والواضح أن الرجل لم يكن مهتماً بأناقته العسكرية، فهو حاسر الرأس تكشف أزرار قميصه المفتوحة عن قميصه الداخلي الابيض. كأنه يرتدي هذه البزة الخضراء ليوفّر على نفسه أو على زوجته تغيير الثياب، أو ربما لكي يعلن لمن يراه انه في حالة حرب.

صعد الى سطح الطاحون وسحب وراءه الدرج الخشبي الطويل. لم تره ريّا يبول من فوق، أخبروها أنه عند بلوغه السطح جلس على حافته الى جهة النهر وبدأ أولاً يبصق محاولاً إصابة طيور الاوزّ والبطّ، كان لا يزال في الدوّار منها الكثير، ولما نشف حلقه وسئم، وقف وأخرج ذكره وراح يشخّ مقنطراً بوله ومحاولاً أيضاً التصويب على الطيور. ويبدو أنه

بحث عن حجار على السطح فلم يجد، وألقم الكلاشينكوف وأطلق رصاصتين في اتّجاه الطيور فلم يصبها.

خرجت ريّا عندما سمعت الطلقتين، فوجدت المارة قد بدأوا يتجمعون فوق الجسر، يوقفون سياراتهم الى جانب الطريق وينزلون ليتفرجوا عليه. كان قد بدأ يَحْكي عن شقيقه. روى انه يعمل في الكهرباء من الفجر الى النجر، يتسلق أعمدة التوتر العالي، نحست يداه من شد الكابلات ونجا من الموت بأعجوبة يوم صعقه التيار. رغم ذلك هو سعيد لأنه كان يدفع عن أخيه أقساط الجامعة ويشتري له ثياباً جديدة. لم يقبل أن يخيص عنه شيء. مثله مثل رفاقه إن لم يكن أحسن.

كان الناس يزدحمون ليس فقط فوق الجسر بل على الطريق العالية المؤدية الى دير مار سمعان والى ملعب كرة القدم فصار وهو يحكي يتوجّه تارة الى تحت وطوراً يلتفت الى فوق. هو حمار يكاد لا يعرف كيف يوقّع اسمه. وصل زوراً الى الصف الرابع حتى طردوه لكثرة ما كان شقياً. أما أخوه فكان عاقلاً كالملاك. التخصص في الطب طويل، ثماني سنوات وهو يقول له إذا لزمك عشرون سنة انا مستعد، لا تحتل همّاً.

- قتلولي اياه!

ويلوّح بالكلاشينكوف نحو الجسر فتتصاعد أصوات النساء خوفاً ويخفض الجميع رؤوسهم وينحنون، أما إذا صوّب نحو الأعلى، نحو الدير فكان الواقفون على حافة الطريق يتراجعون فيختفون عن مرمى سلاحه وعن نظر ريّا الواقفة في أول الطلعة كي لا تترك الفضوليين يتجمّعون في المطعم، إذ قد يخطر لبعضهم فكرة الوقوف على الكراسي والطاولات ليتابعوا الفرجة.

في السنة الأولى نقص عشرة كيلوغرامات من فرط السهر والدراسة، وهو يطعمه ويمنع من حوله الضجيج كي يتمكّن من النوم. ويرجع الى أعمدة التوتر العالي والكابلات النحاسية والديسجونكتور الذي انفجر في وجهه فأفقده بصره يومين. على قلبه أحلى من العسل لأن أخاه سيتخرج قريباً. الدكتور نعيم العسلي!! صفقت بعض الأيدي فوق الجسر وامتد التصفيق الى طريق الدير. بدا ممتناً لذلك حتى أن ابتسامة خفيفة ارتسمت على وجهه. وسرعان ما تدارك صارخاً:

- قتلولي اياه!

ولوّح بالكلاشينكوف من جديد فمال الناس خائفين ضاحكين.

في اليوم التالي لتخرّجه صعد الى المقبرة. أمه أوصته قبل موتها أن يزورها يوم تخرّج شقيقه. صعد وحده ولم يكن يعرف أين مدفنها. لم يجد أحداً ليسأله، بحث يميناً وشمالاً من دون جدوى، ثم وقف في وسط المقابر كي تتمكّن من سماعه حتى لو كانت مدفونة الى الطرف بجانب السور، وجمع يديه الاثنتين عند فمه كالبوق - جمعهما أمام عيون المتفرجين - وصاح:

- أهنئك بالدكتور الجديد يا أمّ عيسى. لا تؤاخذينني لا أعرف أين أنت. لا تنسي أن تخبري والدي.

سرت ضحكات خافتة ورأت ريّا فتاتين تدمعان. لم يجرؤ اصحاب الضحكات على رفع أصواتهم خشية أن يجرحوا شعوره فيقدم على إطلاق النار.

استأجر له عيادة كبيرة في بناية مخصصة لعيادات الاطباء، جهّزها واختار له سكرتيرة شاطرة. لكنهم لم يقبلوا بذلك. قتلوه. كان عاقلاً مثل البنات. اعتقد أنه طبيب ولا أحد

يعتدي عليه. أوقفوه على حاجز طيّار. فجأة علا صوت رئيس الدير:

- انزل يا ابني، أعطني الدرج الى هنا.

كان الاب بطرس يناديه من فوق، من جانب الدير وتوجه نحو الطاحون. عرف الرجل أنه لا يمكنه معارضة رئيس الدير، فحاول فقط الاستفادة من الوقت اللازم لكي يجتاز أبونا بطرس المسافة بين الدير والطاحون. عصبوا عيني أخيه وصاروا يشتمونه. لماذا يشتمونه؟ لم يعترضهم بكلمة، كان فقط يكرّر لهم أنه طبيب. وصل رئيس الدير الى باب الطاحون فنادى مجدّداً الرجل أن يُنزل الدرج فأنزله. صعد أبونا بطرس ولما وصل الى الدرجات العالية بان سرواله الداخلي الأبيض فتعالت الصيحات والضحكات. أخذ منه الرشاش ونزع منه المشط ثم دعاه الى النزول. نزل الرجل ضاحكاً ورئيس دير مار سمعان وراءه يحمل الكلاشينكوف فصفّق الجميع من تحت ومن فوق.

أخبر دانيال عن الوصية وعن بوليصة التأمين وعن صورة أمها، لكنه لم يخبره ماذا جرى بينهما يوم السبت بعدما أطال لها الكلام عن جدته مريانا النبّارة وعن المديترنيان بلو ومتحف المتروبوليتان واليهود الذين حاولوا الوقوف في وجه شهرته الفنية. كان شرحه هذا مقدمات راح بعدها يشكو وحدته في نيويورك بدون أقارب وأصدقاء إلا الذين يسعون لاستغلاله وأن شقيقته بعيدة، على مسافة ساعات بالطائرة وأولادها أصبحوا أميركيين لا يفهمون العربية، وأنه لا يعرف التعامل بالشيكات والكريديت كارد ولا يأمن ركوب المترو وأن النساء لا يحمن إلا حول المال وأصحاب السلطان.

لهجته أيضاً أخذها معه الى نيويورك وعاد بها محفوظة كما كانت، مثل رائحة جبنة الماعز والورد الجوري. تستمع إليه وتنظر الى البعيد، تدخّن سيجارة تلو أخرى. كاد رأسها ينفجر. قال أشياء قرّرت بينها وبين نفسها أنها لم تسمعها وأنها ليس فقط لن تعيدها على مسمع أحد بل أنها لن تعيدها على نفسها، كأنه لم يقلها! حاول تسهيل الأمر عليها بأنه

مريض ولم يبقَ أمامه وقت طويل يعيشه فهو إما مصبّح واما ممسٍ. عندها فهمت لماذا كان يطرح عليها تلك الاسئلة عن راميّ ومدرسته وعن مستوى المعيشة ومدخول المطعم . بقيت صامتة، مطبقة شفتيها، كان السكوت وجحوظ العينين جوابها الوحيد. لم تكن تريده أن يقيم عندها كي لا يحدث بينهما ما حدث يوم السبت هذا.

لم تقف، لم تمش ولم تحك. كانت تشعل السجائر فقط. اخبرها كيف أن يديه لم تعودا تطيعانه هو الذي لم يفعل في حياته كلها شيئاً سوى الرسم. طلبت من سعيدة ركوة قهوة ثانية. هذا كل ما كانت قادرة على قوله. رسالة شقيقته أقنعتها بعد موته أنه عاد من أجلها، لقد حفظت ريّا الجملة حرفياً:
You must break off deluding yourself concerning this girl Rayya. كذلك أكدت لها أنه كذب عليها في شأن صحته. دانيال أخبرها أيضاً أنه توجه مباشرة من المطار الى الدوّار وأنه لم يكن في نيته الذهاب الى مكان آخر. هو لم يعترف لها بذلك بل قال إنه عاد من أجل ضوء لبنان الفريد وألوان جباله المتغيرة ومن أجل استعادة ذكريات الماضي. كذب عليها كثيرا موسى. حتى في موته كذب عليها. عاملها كالصغار، كما كانت قبل أن يسافر الى أميركا عندما كانت تركض اليه من بعيد فينزل جسمه ليستقبلها ويرفعها عالياً فتصرخ من الفرح وتطلب منه أن يرفعها ثانية فيفعل الى أن تتدخل أمها وتنهرها أن تبتعد عنه لأنها أتعبته.

ثلاثة زشهر لم يذكر فيها مرّة واحدة اسم فؤاد أو اسم هند. لم يسألها كيف قتلا وعلى أي طريق. أغفلهما وهما واقفان بينها وبينه. جاءت سعيدة بركوة القهوة الثانية فانتظرها موسى كي تنصرف.

- سأكتب لك كل أرزاقي .

لم تعرف كيف حضر جوابها :

- لديك زوجة ويقال ان لديك ابنة وهما أحقّ من الجميع .

انفعل وصرخ :

- انها ليست ابنتي .

لم يترك لها مجالاً :

- أبي وأمي أورثاني ما يكفيني .

- ريّا !

- وحدها الحيّة تقشر جلدها !

ومشت مسرعة نحو المطبخ وصعدت الى غرفتها .

طوال جلسة يوم السبت كانت ريّا تنظر في اتجاه الماء ، ليس فقط لأنها كانت خجلة من نفسها ومنه ، بل لأنها كانت تحاول ألا تنظر الى يديه . هو يحكي ، وهي تخاف أن تنظر الى يديه .

لم يكن الضباط الفرنسيون يترددون على الدوّار لأكل الكبة وشرب العرق فقط. كان واحدهم يصطحب معه امرأة، يتغديّان ويشبعان وفي النهاية تسبقه الى الطابق العلوي وبعد دقائق يلحق بها. الآن استفاقت ريّا على هذه الأخبار، تريد التأكّد منها، تريد الإمساك بهذه السلسلة من النساء اللواتي تعاقبن على الدوّار. جدّتها وأمها وهي وربما غيرهن في الماضي. ستكون الأخيرة لأن لا ابنة لها. يوم صارت متلهّفة لاسترجاع الماضي على جليّته لم يعد هنالك من يخبرها. لكن قصص الدوّار شائعة، وقصص جدّتها شائعة. أخبروها ان خالها أخذ ألبوم الصور وقال:

- الدوّار من حصة هند، على الأقل تكون الصور من حصتي.

أضاعه. أكثر من مئتي صورة وعلى الصفحة الأولى صورة الجنرال ديغول يوم تفقّد مخيم الجيش الفرنسي خلف دير مار سمعان، مكان ملعب كرة القدم، وأقاموا له حفل استقبال وغداء على شرفه في الدوّار. لم تر الألبوم ولم يعد أحد

يعرف عنه شيئاً. تعرف أن الجنرال ديغول تحادث مع والدها، وقال له شيئاً ضحك الضباط المحيطون به من جرائه طويلاً.

جدّها أول من حكى أمامها. كانت صغيرة جداً، لم تفهم ما كان يقصد عندما كان يقول وهو مدير وجهه الى الحائط ان آخرة الرذيلة نومة مكعزلة. صارت متأكدة اليوم أنهم أدخلوها الى المدرسة الإيطالية في بيروت كي لا تسمع كلاماً هنا. لكنها سمعت ما فيه الكفاية. سمعت خصوصاً عن الضابط مارسيل، يطلب الأكل الى فوق مباشرة، يخلع ثيابه العسكرية ويعلّقها في إحدى الغرفتين، ثم ينتقل مع صديقته الى الغرفة الأخرى وهما في عري ربهما. يأكلان وهما في السرير، وكان طبق مارسيل المفضل اللقز الرملي يحبه مشوياً مع الملح الخشن، فيتولى هو تنقية السمكة من الحسك ويطعم صديقته بيده. كان يقول انه في الحقيقة لا يحب الأكل بقدر ما يحب رؤية الآخرين يأكلون. كانا يطعمان معهما الفراش والغطاء، ومارسيل يشرب نصف كأس النبيذ ويرمي النصف الآخر على الحيطان. يعكان الغرفة، كأن إعصاراً هبّ عليها.

نجا وحده من معركة وادي فيسان. هبط عليه الليل فلم يهرب، بل تسلل الى حيث تجمعت البغال المحملة ذخيرة، وقد قاوم العطش بأن بلّل شفتيه ببوله ثم فجّر البغال بالمتاولة المتجمعين حولها. نزل الى الدوّار في اليوم التالي وهو يرعد ويشتم العاهرات اللواتي استقبلن الجيش الفرنسي في وادي فيسان بالزغاريد وقدّمن للخيل مياهاً مسمومة. وراح يطالب بامرأة في الحال. لم يجدوا له امرأة فهدّد وتوعّد وحمل خالتها ياسمين تحت إبطه، كانت في السابعة عشرة من عمرها، وصعد بها الى الطابق العلوي. لحقت به جدّتها وهي تطالبه بأن يتزوج ياسمين فوافق:

– غداً، غداً.

فقالت له انها صغيرة وعذراء واستحلفته بشرفه العسكري وبشرف فرنسا أن يتزوّجها في اليوم التالي، فحلف. تزوّجها بعد ستة أشهر. أخذها معه الى مرسيليا، حيث كان كلما غضب يطلق النار فوق رأسها داخل البيت، ثم انتقلا الى الغوادلوب لكنهما لم يرزقا أولاداً، وآخر اخبارهما وصلت الى الدوّار قبل الحرب إذ التقى بهما أحد البحارة اللبنانيين في الغابون، وقد فتح مارسيل هناك مسبحاً على شاطئ البحر سمّاه لبنان ويمضي وقته يشرب النبيذ ويغازل السوداوات، وهو بلغ السبعين من عمره.

الضباط اللبنانيون أحبوا الدوّار أيضاً، لكن الأمور صارت تحدث في الخفاء، في الليل وللأصدقاء المخلصين فقط. شرطة الأخلاق كانت ساهرة وترسل دوريّات للتحري. حتى ماتت جدّتها. من بعدها بقي العسكر يتردّدون على الدوّار للأكل فقط. يأكلون ولا يدفعون. في الماضي أيضاً كانوا لايدفعون فيغمضون أعينهم عن الطابق العلوي. تحوّل الطابق العلوي منامة للخدم ومن ثم أقام أهلها فيه ومن بعدهم هي ورامي، واستمر ضبّاط الدرك يأكلون ولا يدفعون.

هرّبوها الى المدرسة الايطالية في بيروت كي لا تسمع لكنهم نسوا سعيدة. جدّها خليل أول من شتم الدوّار أمامها، وسعيدة سردت عليها التفاصيل. يوماً بعد يوم، تارة بالتذكّر والحنين عندما تبدأ بالقول رزق الله على تلك الأيام وطوراً بالمفاضلة بين الماضي واليوم أو حتى بالتظاهر بالحياء. أخبرتها قصة مارسيل كلها وهي تستنكر، كل دقيقة، يا عيب الشوم. جدّها والد أمها لم تسمع به، كأنه لم يترك أثراً. الدّوار صنعة نساء، نساء وعسكر.

أي نهر هذا الذي إذا تأخر فصل الشتاء قليلاً يجفّ فيمشي فيه البطّ مشياً؟ يشد همّته اسبوعين أو ثلاثة عند ذوبان الثلوج فيهدر قليلا ويغطي قناطر الطاحون حتى منتصفها لينوس من جديد. إعتقده والدها من دقّ العاصي فجاء بناعورة من حماه لكنها بقيت بدون حراك، عجز النهر عن إدارتها فصارت مرتعاً للعصافير تعشش في طبقاتها ولا تخشى على صغارها الغرق. بهدل النهر الناعورة وأول ما تيسّر لهم بيعها تخلصوا منها. لم يعد قادراً على شيء. إذا تحامل على نفسه جاء بهرة ميتة وإلا فلا طاقة له إلا على جرّ أكياس النيلون وزبالة خفيفة وكل ما هو من هذا القبيل.

اعتادت على رائحته هي ومحمود وسعيدة. في آخر الصيف لا تسيل فيه سوى المجارير. أربع بلدات على الأقل صارت تصبّ فيه. يغيب الزبائن في هذا الوقت من السنة ولا يعرّج على الدوّار إلا الغرباء وعابرو السبيل. يدعوهم محمود الى الجلوس في الداخل فيصرّون على الجلوس على حافة النهر قبالة الطاحون ليتمتّعوا بالهواء الطلق. وبعد قليل، بعد

ان يكون محمود قد أنزل لهم المازات، يدركون أن الرائحة لا تُطاق، فيطلبون الانتقال الى الداخل. هؤلاء لا يعودون أبداً، حتى أنهم يقذفون المكان وأهله بالشتائم وهم يغادرون. في سائر الفصول يقوى النهر على الرائحة ولو أن المتمرّسين إذا ما استنشقوا عميقاً في أي وقت من أوقات السنة يعرفون أنها هنا. مجرور البيت والمطعم يصبّ في النهر أيضاً، يصبّ فيه منذ وجد المطعم على الأرجح، وربّما لم تفكر في الأمر من قبل. سألت سعيدة عندما بدأت الرائحة تقوى فخرجت معها الى آخر بستان الليمون حيث يتكاثر البرغش والذباب. هم أيضاً يقضون حاجتهم في النهر.

وباخوس يثابر على التصليب ويثابر على المرور في الوقت نفسه. لم تنتبه ربّما ما يفعله عند تقديم الوقت إذا كان يتبع الشمس أم الساعة. ستحاول أن تتذكّره يوم يعودون الى تأخير الساعة في أول الخريف. غاب مدّة أسبوع تقريباً، توفيت زوجته. عاد معتمراً قبعة قش، صار يخاف من ضربة شمس ربما. تغيرت نظراته أيضاً، المحزون يتطلّع بخفر لأنه يعتقد أن الناس ينظرون إليه. لكن باخوس لم يغيّر من عادته، فوقف في أول الجسر حيث تتكشف له قبة كنيسة مار سمعان وصلى بإحساس مضاعف هذه المرّة على الأرجح، ثم ما لبث أن استفاق متذكراً ما درج عليه فرسم إشارة الصليب على صدره ثم صلّب على النهر. نظر الى الماء من فوق الجسر فجرّه نظره الى المطعم. لم يتفرّس طويلاً في المكان، إنه محزون. ردّ نظره عن المطعم وصلّب مرة ثانية فوق الماء. قد يكون تذكّر أن النهر أغرق موسى بشارة فعاود الكرة. إنه قصير القامة يمشي بالعرض، يرتدي ثوباً أزرق فاتحاً، رماه أحد اولاده فلبسه هو. متمهّل، مرفوع القفا، ينظّم العالم على هواه ويوفّق في

ذلك. يخاف النهر والنهر يعطيه الحق. لا شكّ أن باخوس مقتنع بأن النهر لم يعد يطوف بسبب حرصه وحرص أمثاله على الاستنجاد بمار سمعان كل يوم. كأن النهر أخذ موسى بشارة مثلاً في غفلة عن هذا الحرص وهذه الصلوات.

تسند الدرج الخشبي وتصعد أحياناً الى سطح الطابق العلوي وتقف في الوسط خوفا من أن تنتابها الدوخة وهي فوق تتأمله آتياً من بعيد، صامتا ومتمايلاً بين ستائر القصب وبساتين الليمون، يمرّ في محاذاة خمس طواحين غير طاحونة الدوّار وكلها استغنت عنه وتحوّلت منذ سنوات الى الكهرباء. يستقوي عند المخلط بنهر العسل الصغير فيتوجهان معا الى المدينة حيث ينسابان الى البحر القريب بين الشوارع الضيقة المزدحمة بالباعة والحمّالين الذين ينادون النهر باسم جديد ويرمون فيه كل ما شقّ عليهم حمله من عتائق ونفايات.

من سطح الطابق الثاني لا حاجة لأن يكون الناظر فرنسياً يشرب صندوقاً كاملاً من زجاجات البيرة في جلسته أو ضابطاً خبيراً مثل كارتون في جرّ المياه بواسطة قساطل ليعرف أن النهر يرسم نصف دائرة كاملة لكي يلتفّ حول الدوّار ويستعيد من بعده مساره المستقيم، كأن أحدهم ردم النهر وبنى المطعم فوقه.

ـم يسألها أحد هل رأت موسى صباح يوم الاثنين. موظف شركة التأمين اللعين لم يأت الى الدوّار بحثاً عن حقيقة ما حدث، جاء ليعقّد الأمور وليمنعها من الحصول على بوليصة التأمين، وقد نجح في مهمته. عرقلها بقصة التوقيت الصيفي، وهي لا تزال تقلّبها في رأسها من دون نتيجة. من كان عارفاً بتقديم الساعة ومن نهض من النوم وفق التوقيت الجديد؟ مثّلها كمثّل مسألة الحنفيات، حنفيتان منسوب الأولى مختلف عن الثانية تصبّان في وعاء فيما تقوم حنفية ثالثة ذات منسوب مختلف أيضاً بإفراغه، فكم يلزم من الوقت للوعاء كي يمتلئ؟ كانت تقف فاغرة الفم أمام هذه الاحجية ولو أمضت أياماً تفكر فيها بشكل مستمرّ لما توصّلت الى حلّها، ولو طلب منها أستاذ الحساب مباشرة بعد أن يكون قد حلّها على اللوح أن تكرّر الشرح من ورائه لما استطاعت. تخلّت عن المطالبة بأموال التأمين من يوم عادت من بيروت، من مكاتب الشركة في شارع الحمراء. في حال تقدّم المستفيد من البوليصة بطلب للحصول على المال. لم تتحمّل التلميح.

- يعني أنا قتلته؟
- شخصياً لا أعتقد ذلك ولا أتمناه.

يعني أنه يعتقد ذلك ويتمنّاه. في كل حال من يمكنه أن يشرح لها ماذا توخى موسى من إفادتها بهذه البوليصة وهو في نيويورك من دون أن يخبرها، ومن عودته الى هنا ليموت بقربها؟ مساء الأحد تعشّى بصمت. محمود وسعيدة كانا ينتظران انتهاء مهرّب السجائر وزوجته وابنتيه من العشاء. تطول جلستهم العائلية أحياناً حتى منتصف الليل، يتحادثون بجدية وهدوء، لا ضحك ولا أصوات عالية، البنتان في حال دهشة دائمة من كلام أبيهما وأمهما. محمود وسعيدة يخدمانهم بعناية وينتظرانهم بطيبة خاطر لأن الرجل يضاعف لهما الإكرامية ويسمّي سعيدة قرابته. موسى شرب الشاي وأكل القليل من جبنة الماعز بالإضافة الى ليمونة واحدة، سعيدة اهتمّت بخدمته من دون أن يطلب منها، ربما لأنها أحست أن ريّا لم تدعه الى الأكل. لما انتهى صعد لينام واكتفى بالقول من دون أن تلتقي عيناه بعيني ريّا:

- تصبحون على خير.

حتى دانيال لم يسألها، اكتفى بالمساعدة في الجنازة والدفن وإخبارها عن وصية موسى، وبإمساكها من يدها كلّما حانت له الفرصة. لا تعرف ماذا يريد، يحكي بالفصحى ويأتيها دائماً باخبار لا يعرفها أحد كما في آخر مرة جاء فيها الى الدوّار، يوم أمس، والقلق باد عليه. تنحّى بها جانباً وقال لها أن قاضي التحقيق ليس مقتنعاً بأن الأستاذ موسى مات قضاء وقدراً لأن الطبيب الشرعي يذكر في تقريره أن هنالك أثراً لضربة على رأسه بواسطة أداة صلبة وحادة، وانه في حال تقدم أحد من أقربائه بشكوى يمكن إعادة فحص الجثة للتأكد.

دانيال يخالف القاضي الرأي فهو مقتنع أن الفنان الكبير عاد ليموت في وطنه وعندما سمعته ريّا يقول إن موسى اختار الصباح والماء ليمتزج بهما الى الأبد، تذكّرت ما أخبرها إياه الأب جبرايل عن حائط المهاجرين حيث أضيفت عبارة تشبه عبارات دانيال الفصيحة الى جانب اسم موسى قبل أن يموت. غريب، لا أحد يسأل دانيال عن موت موسى!

الست سعيدة لها أيضاً رأي في ما جرى، ولها أيضاً شروطها، فهي تصرّ على أن تكون ميتة موسى مدبّرة يتجلّى فيها سواد النفوس والطمع ونكران الجميل، وهي في قرارة نفسها تودّ إلباس ميتة موسى لأبناء عمه. لا بل تجاهر بذلك أحياناً. لا تتصوّر الشرور واقعة إلا بين الأقرباء، وإذا عرفت أنه في النهاية لم يحرم أبناء عمه من ميراثه لا بل كتب لهم محوّطة الحريق نفسها التي كان يطلب في رسائله من والد ريّا منعهم من الاقتراب منها، اذا عرفت سعيدة ذلك فهي كفيلة تحويل حجة البراءة تهمة أنهم مستعجلون ليرثوه إذن وإذا تبرّع أحدهم ليشرح لها أن موسى كتب وصيته بملء ارادته، تنهي الموضوع بالقول انها لا تفهم بالوصايا، وان كتاب العدل كذابون. سلوى وروميو لن يهجما على الدوّار ولن يسألا عن ميتة موسى فهي تناسبهما. حتى محمود لا يسأل، لم يبن السد هذا الموسم، يكتفي بإنعام النظر في النهر ويهزّ برأسه، يحكي معه. كأنه غيّر رأيه فيه. يخبّئ في نفسه فكرة، محمود، وإلا لماذا يتبرّع طوال الوقت ليردّ الهجومات عن ريّا وينبهها من الانزلاق في الكلام من دون ان يستوضح منها شيئاً؟ لا تجد من تحكي له. في كل حال من يصدّقها لو قالت إنها صباح يوم الاثنين سمعت صوت موسى قبل أن تراه. وإنها بعدما انطلق أوتوكار المدرسة برامي عادت الى غرفتها

لكي تأتي بجزدانها وبيدها تمثال بيتهوفن بعدما انتزعته من رامي الذي أراد أخذه معه الى المدرسة فهي تخاف أن يضرب به أحداً من رفاقه. وبينما هي في منتصف الدرج سمعته يناديها باسمها. خرجت فرأته واقفاً الى جانب الطاحون قبالة المطعم لجهة الجسر. كان يتطلّع الى فوق، الى شجر الدلب العالي كأنه يراه للمرة الأولى. نظر إليها ولم يقل كلمة، كأنه لم ينادها. في عينيه عتب عميق فقط. خطا ثلاث خطوات في النهر ثم جلس في الماء كمن يجلس في أريكة.



أفاقت على صوت مدو، قد تكون فرقعة محرك سيارة تعبر الجسر. الضوء في الخارج لا يزال ضعيفاً. لا تستطيع النوم إذا كانت الغرفة محكمة الإقفال، فتحرص على إبقاء الشباك الخشبي مفتوحاً ولو قليلاً، تحبّ أن تشعر أنها على اتصال بالدنيا، بأضواء السيارات العابرة، بالأصوات البعيدة وبالليل الفسيح. جلست في السرير مفتوحة العينين كأنها مستيقظة منذ زمن. عندما تستفيق تكون قوية، عامرة بالحيوية، لكن سرعان ما يخذلها جسمها، إذ لا تمرّ دقائق على نهوضها من السرير حتى تشعر بالخدر في رأسها، يصيبها ما أن تصبح مستعدة للشروع بيومها، بإيقاظ رامي أو بارتداء ثيابها. هذا الخدر، هذا الدوار ليس سوى إشارة لارتطامها بالحياة. تصير مثقلة، مشدودة، راغبة في الجلوس. إنها عاهتها السرية لم تتذمر منها أمام أحد. اعتادت عليها، تعرف متى تستبدّ بها وصارت تعرف كيف تعالجها ولو أنها لم تدر لها سبباً. تأتيها بغتة وتتركها على مهل.

الوقت مبكر، الساعة لم تبلغ الخامسة بعد. بدأت بطلي

أظافرها بأحمر وقح لم تستعمله قبلاً، واشترته فقط ليكون لديها إمكان التغير إذا حلا لها. رامي نائم يسند ركبته الى الحائط. اقتربت من المرآة، كحّلت رموشها وعينيها، ليس لديها سوى اللون الأزرق، لوّنت خدّيها قليلاً ثم رسمت فمها جيداً بأحمر الشفاه. رامي يصدر أصوات النوم المعتادة كأنه يعترض على أمه كيف ترغمه على النوم، فهو إذا أغمض عينيه تشعر أنه يُربحها جميلاً. استعملت كامل عدّتها ثم أخرجت فستانها الجديد من الخزانة، وضعته على طول قامتها وابتعدت قليلاً لترى نفسها في المرآة. جاءت به أول من أمس من عند الخياطة ولم تدفع لها أجرتها كاملة. تصبر عليها. تفحصتها من أعلى الى أسفل وهي تجرّب الفستان.

– لماذا لا تتزوجين يا ريّا قبل فوات الأوان؟

غادرت الغرفة ونزلت الدرج من دون أن تحدث ضجة. الطقس بارد في الخارج وضباب النهر في كل مكان. اكتفت بالفستان بدون أكمام، هذا الصباح لا تريد أن تتحاشى رطوبة الدوّار. طلعت الشمس وبدأ الضباب بالانحسار فبان دير مار سمعان. مشت في اتجاه بستان الليمون قاصدة غرفة جدّها خليل. فتحت باب الغرفة لا لتدخل، فهي تعرف أن ما حشر فيها لا يترك مكاناً لموطئ قدم. كما في كل مرة دفعت الباب وبقيت واقفة في الخارج. لا تبحث عن شيء، تفتح الغرفة وتنظر الى داخلها كمن يحاول النظر الى الماضي ثم تجلس فوق العتبة وتسند رأسها الى حاجب الباب. رأت تمثال بيتهوفن مرميا بين الأعشاب على بعد مترين أو ثلاثة من باب الغرفة. لم تخف، كانت تتوقع ظهوره. لقد غلبها هذا الرجل النحاسي الصغير المقطّب الحاجبين. استسلمت لكنها تريد فقط ان تعرف من يطاردها به. منذ يوم الاثنين الذي وجدوا

فيه موسى بشاره في بركة الست دلال وريّا تشعر أن أحداً يقف وراءها. تتطلع هكذا أحياناً لتراه إذا كان مخبأ في شجرة الدلب، في الطاحون أو فوق في دير مار سمعان. رامي سيفاجأ برؤية التمثال ولا بدّ أن تقدم له تفسيراً لظهوره من جديد. قد تقول له على الأرجح ان الملاك طار الى بيت من سرقه، لأنه يعرف أنه يحبه، وعاد به اليه. لا، لا، لا يمكنها أن تترك رامي يلعب بهذا التمثال بعد اليوم.

نزعت اسكربينتها وحملتها بيد وحملت تمثال بيتهوفن باليد الأخرى. توغّلت في بستان الليمون، تمشي وتغني. تحلم فقط بانتصار أخير لن تسعى الى غيره، وهو أن تتمهّل، أن تهدأ، أن تستعيد زمناً آخر، نكهة الماضي كما حدث يوم هفّت عليها رائحة جدّها خليل. ستمرّن على ذلك حتى تجد مفاتيحه علّها إذا أغمضت عينيها تعرف كيف كانت تبكي من فرط إعمال أمها المشط في شعرها الطويل لتخليصه بعد الحمام، ومن ثم تضمّها وتشدّ فتنام قريرة العين في شراشفها البيضاء التي تفوح منها رائحة أحجار النيل الزرقاء. أو إذا وقفت هناك وسط المطعم، في الفسحة بين باب المطبخ وصفّ الطاولات ترى من جديد شاباً وفتاة انكليزيين من أبناء موظفي شركة تكرير النفط، والليل على وشك الهبوط، يرقصان متعانقين التانغو الناعمة على صوت الساكسوفون الأبح ينفخ فيه شاب أشقر طويل وقد تحلّقت طيور البط مصغية. أو عندما يعمّ السكون تسمع من كنيسة البلدة البعيدة ترتيلة أنا الأم الحزينة ترسلها مكبرات الصوت فوق بساتين الليمون الفسيحة يوم الجمعة العظيمة. واذا التفتت رأت والدها واقفاً ويده ممدودة كأنه يناجي النهر وهو يقول عن ظهر قلب، بما التملل لا اهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن.

جاءت بكرسي من كراسي المطعم، وجلست تحت شجرة اليافاوي. في وجهها المنظر نفسه الذي كان يمكن أمها أن تراه وهي جالسة أمام موسى ليرسمها: الطريق الترابية الصاعدة في اتّجاه ملعب كرة القدم وكنيسة دير مار سمعان وساحتها الصغيرة المسورة بشجر الشربين العالي.

لن تترك قصة موسى بشارة تطبق عليها. لا تريد المال الذي كتبه لها والذي لا تستحقه، لن تهاجر الى فورت واين. ستبقى هنا، في الدوّار وستظل حياتها مشرّعة يدخل اليها الناس ويخرجون من دون استئذان. لا تريد بيتاً في مدخله مطلع درج من الحجر الأبيض وشجرة خرّوب، لا تريد شقة مليئة بالسجاد والأواني. لن تعيش وحدها مع رامي بين أربعة حيطان، ستسكن هنا في غرفتي الطابق العلوي وتضع المفاتيح فوق حاجب الباب، وعندما يكبر رامي تنتقل هي الى الغرفة المطلة على الماء، غرفة والديها، وتتركه لوحده في الغرفة الأخرى لتقيه رطوبة النهر قدر المستطاع. ولما يتمتع السكر أحد الزبائن ويطلب التمدّد قليلاً ستقدّم له سريرها. ستبقى هنا على الطريق العامة، أليست ابنة فؤاد أبوخطار الذي لم يعرف له ولا لأهله بيت في الساحل ولا في الجرد؟ وليس لها أن تتذمّر ولها في الدنيا ما لها. ستبقى هنا ومهما انقلبت عليها الأيام ستتعزى بآخرة هيفاء التي كانت تخبرها إياها أمها، هيفاء التي هاجر أبناؤها وتركوها، والتي لما أقعدها الزمن ولم

يبق لها من متاع الدنيا سوى فرشة من الصوف، حنّت عليها اثنتان من جاراتها فصارتا تتناوبان على إيوائها، أسبوعاً من كل واحدة، حتى انطفأت فجاءتا بميزان يد وتقاسمتا صوف فرشتها بالتساوي. لا تخاف النهاية، لا، ستبقى هنا تحت عين مار سمعان الضيقة وديره المحاط بشجر الصبّير الشوكي والبنادق التي لا تزال في شحمها ويقال إن الفرنسيين تركوها في أقبيته عند رحيلهم، ولم يرها أحد. هنا. قبالة الطاحون على حافة النهر. واليوم ما ان يصل محمود، ستطلب منه أن يعيد بناء السد كي يتمكن فرخ البط من اللعب، وكي يتسلّى رامي باطعامه الخبز وحب الزيتون. ستتعلم شغل الصوف بالصنارة، وتجلس أيام الشتاء الباردة هي الى جهة وسعيدة الى جهة من كانون النار وتتبادل معها الأخبار، وتتمضمض مستنكرة الشواذ وغدر الأقرباء وتتنهّد معها من أحوال الدنيا وما بلغته فيها الشرور، وستجد لذّة في اغتياب الناس. ستبقي أيضاً محموداً معها رغم تجاوزه الستين بكثير، وازدياد الحدبة في ظهره. هذه عائلتها وعدّتها. أرهقها استباق الأخطار والقلق من حوادث السيارات والحذر من كل شيء حتى من النظرات. تودّ إعلان استسلامها بصوت عال. إذا أمطرت السماء أياماً متتالية ستطلب من الله أن لا يذيقهم الطوفة من جديد وإذا انحبس المطر ستسترحمه شتوة. سترصد مؤشرات العاصفة وسمكة الشرق التي تبشّر بالمطر واللحاف الأبيض الذي يغطي الساحل وينذر بالحرّ الشديد. ستصطحب ابنها الى البحر يوم أربعاء أيوب، واذا سألوها ستقول انه لا يجوز ثقب آذان البنات الصغيرات الا عندما يزهر شجر الرمّان. لن ترمي قشر البيض في الجوار لأنه يجلب الافاعي. ستضع نفسها تحت رحمة الدنيا، مثلها مثل باخوس، وستسمي من

الآن وصاعداً زفرة النهر هذه زفرة وستدخل فيها وتجلس وتذوق طعمها اذا كان لها طعم. لن تخاف الأوجاع، وستحمد الله لأنه خصّهم بداء المفاصل وحده دون سائر أمراض الدنيا ومصائبها. ستعيش كما اليوم، وحدها، لم تذق ملذّات الجسد إلا خلسة، ولم تنم مع رجل إلا واعتقدت انه سيرذلها في اليوم التالي، ستبقى وحدها، يتحرّش بها المتسكعون وأصحاب السوابق وهي تصدّهم وتكفّر عن ذنوب الدوّار كلّها منذ وجد. ستأهّل بالزبائن جميعهم، مهربي المخدرات ولاعبي سباق الخيل، بالعائلات وببنات الهوى واذا أصرّت إحداهن على الجلوس الى جانب الماء والطقس مائل الى البرودة ستعطيها من خزانتها كنزة ترشها على كتفيها. هنا ستبقى، على كوع النهر، تنتظره كي يستفيق من جديد ذات يوم فيطوف، ويحاول تقويم مجراه فتصعد مع رامي الى الطابق العلوي وتنتظر معه النجدة. لن تهرب فالحياة لن تحدث في غيابها. ستنهض بعد قليل ما ان تحمى الشمس لتوقظ رامي وتسرّح شعره وتربط جديلته الصغيرة ثم تصطحبه في نزهة صباحية الى تلة الذهب، فتدلّه الى الجبال العالية والقريبة وترصد معه تبدل ألوانها بين ساعة وأخرى ثم تبدأ بإخباره قصة الدوّار قبل أن يخبره إياها أحد غيرها، قبل أن يخبره إياها رفاقه في المدرسة. ستقول له إن الجنرال ديغول شرب هنا نخب بلاد الأرز وأثنى على جمال أمها وأهدى والدها مسدساً، ستدلّه أين كانت تجلس الأوركسترا في الحفلات الراقصة، ستخبره كيف جاؤوا ذات يوم بالشبان العشرة وحفروا لكل واحد حفرة على رمية حجر من هنا في بستان اللوز الصغير ودفنوهم بعدما نظّفوهم من الدماء وألبسوهم ثيابهم الجديدة وزرعوا فوق قبر كل منهم صليباً وحلفوا اليمين

أنهم سيقتلون مقابل كل واحد ثلاثة، ستحكي له كيف اندلعت الحرب فأقفر الدوّار ولم يعد يجد فريد الأعمى من يضرب له على عوده ويغني له مواويل الفراق، ولا عاد أحد يقف أمام هراتش ليتصوّر مبتسماً، ستقول له إن والده لم يسافر الى الغوادلوب بل هو مقيم في بيروت، في برج حمود حيث ما زال يتاجر بالدّين ويسدّد من مال القمار، وإنها كانت دائماً تخاف أن يرسل أحداً من رفاقه ليخطف منها رامي، وإن جدّه هو فؤاد أبو خطّار، وإنه كان شاعراً رقيقاً ومسالماً، ستخبره عن دانيال القصير القامة الذي يتكلم الفصحى ويعرف أكثر ممّا يقول ويبحث كل سنة مرة عن حجر الفلسفة في أعلى قمم لبنان، في فم الميزاب، عن الموظف الحامل شنطة السمسونايت صاحب النظرات الوقحة، عن تمثال بيتهوفن الصغير والعنيد، عن النهر الذي أخذ موسى بشارة قبل أن يكمل رسمة رامي جالسا يقضم التفاحة الحمراء لأن الناس يمكن أن يموتوا قبل أن ينهوا أعمالهم، وعن تقديم الساعة ساعة صباح أول يوم اثنين من شهر حزيران وستخبره عن جدّته هند ذات العينين الخضراوين وإنه بعد الأب والأم كل الأهل جيران.

ولدى عودتها عند غروب الشمس سيجلسان ويتأمّلان صورة أشجار الدلب في صفحة الماء، وكلّما هبّ الهواء ونثر عليهما غزّال الحور الأبيض، ستحمد الله على هذه الهبة، هبة الحياة الأميرة.

للمؤلف :

- الموت بين الأهل نعاس، قصص، دار المنشورات الشرقية، ١٩٩٠، بيروت.
- اعتدال الخريف، رواية، دار النهار للنشر، ١٩٩٥، بيروت.

المطابع التعاونية الصحفية ش م ل، بيروت، لبنان
آب ١٩٩٨

توغلت في بستان الليمون، تمشي وتغني. تحلم فقط بانتصار اخير لن تسعى الى غيره، وهو ان تتمهل، ان تهدأ، ان تستعيد زمناً آخر، نكهة الماضي كما حدث يوم هفّت عليها رائحة جدها خليل. ستتمرن على ذلك حتى تجد مفاتيحه علها اذا اغمضت عينيها تعرف كيف كانت تبكي من فرط إعمال امها المشط في شعرها الطويل لتخليصه بعد الحمام، ومن ثم تضمها وتشد فتنام قريرة العين في شراشفها البيضاء التي تفوح منها رائحة احجار النيل الزرقاء. او اذا وقفت هناك وسط المطعم، في الفسحة بين باب المطبخ وصف الطاولات ترى من جديد شاباً وفتاة انكليزيين من ابناء موظفي شركة تكرير النفط، والليل على وشك الهبوط، يرقصان متعانقين التانغو الناعمة على صوت الساكسوفون الابح ينفخ فيه شاب اشقر طويل وقد تحلقت طيور البط مصغية. او عندما يعم السكون تسمع من كنيسة البلدة البعيدة ترتيلة " انا الام الحزينة" ترسلها مكبرات الصوت فوق بساتين الليمون الفسيحة يوم الجمعة العظيمة. واذا التفتت رأت والدها واقفاً ويده ممدودة كأنه يناجي النهر وهو يقول عن ظهر قلب، "بما التعلل لا اهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن".

للمؤلف:

- **الموت بين الأهل نعاس**، قصص، دار المطبوعات الشرقية، بيروت، ١٩٩٠
- **اعتدال الخريف**، رواية، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٩٥